

منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ممارسة النصيحة
وأثرها في إصلاح الواقع الاجتماعي الجزائري
أ.د. كمال لدرع
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

مقدمة:

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في ظروف صعبة، قامت بدور كبير في إصلاح المجتمع الجزائري ترويا وثقافيا ودينيا، والعودة به إلى كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وما كان عليه السلف الصالح مع مراعاة واقع المجتمع وتغييراته وطبيعة المرحلة التي يعيشها. ورغم الاستعماري الغاشم الذي كان جاثما على أرض الجزائر ومخططه الرهيب لمسح شخصية المجتمع الجزائري، لم يمنع الجمعية من إتباع السبل الشرعية في تغيير المجتمع والنهوض به وإخلاص النصح له. فالتزمت جمعية العلماء في عملها الإصلاحية ونصح المجتمع الجزائري الضوابط الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة متبعة في منهجها عمل السلف الصالح، ومستأنسة ومستفيدة من تجارب رجال الإصلاح في العالم الإسلامي.

والواقع الاجتماعي الجزائري آنذاك . مثل ما كان منتشرا في كثير من البلاد الإسلامية . كان يشهد انحرافا كبيرا نتيجة عوامل تاريخية واستعمارية، كانت انتشار الخرافات والبدع ومظاهر الشرك المختلفة، وتفشي الجهل، وضعف

الالتزام السليم بالدين، إضافة إلى مخاطر التصير الذي كان يمارسه رجال الدين المسيحي بالتواطؤ مع المستعمر.

فكان على جمعية العلماء أن تتجه العمل الإصلاحي الشامل في نصح المجتمع وتخليصه مما يعانيه من مظاهر التخلف والانحراف والعودة به إلى الكتاب والسنة، مستجيبة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ فُلْنَا لِمَنْ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)¹، وقوله تعالى: (إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)²، ومستهدية بقوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)³، وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)⁴.

وهذا البحث يرمي إلى عرض تجربة جمعية العلماء ودورها الإصلاحي في مجال النصح بمفهومه الشرعي الواسع وأثر ذلك على المجتمع الجزائري.

أولاً: أوضاع المجتمع الجزائري:

وقعت الجزائر تحت أعتا استعمار في العصر الحديث، الذي عمل على القضاء على كل مقومات الشعب الجزائري، فعمل هذا المحتل البغيض على ربط الجزائر بفرنسا ثقافيا واقتصاديا وسياسيا، كما سلك سياسة التجهيل والتفجير ومحاربة الدين الإسلامي، بإغلاق المدارس ومنع الدروس الحرة في المساجد، وحرّم الكثير من الجزائريين من التعليم، وخص فئة معينة منهم يلقنهم اللغة والثقافة الفرنسية.

¹ - رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم: 82.

² - التوبة: 91.

³ - النحل: 125..

⁴ - الرعد: 11.

كما خاض المستعمر حرب إبادة للشعب، واتبع سياسة فرق تسد، ونشر النعرات والخلافات العرقية والطائفية بين أبناء الشعب، ويمكن إيجاز ما ارتكبه فرنسا من جرائم في:

- غلق المدارس الإسلامية الحرة، حيث قدر عدد المدارس التي أغلقتها بألف مدرسة. والاستيلاء على معظم الأوقاف التي كانت تمول تلك المدارس والأعمال الخيرية.

- القيام بحرب إبادة عامة: فقام بحرق الغابات والمحاصيل، واتباع سياسة التجويع، وإبادة قرى بكاملها من الوجود، ودفع السكان إلى الحدود الصحراوية. محاربة اللغة العربية واعتبارها لغة ثانية لا تصلح للعلم، ومنع تدريس التاريخ الإسلامي عامة والتاريخ الجزائري وجغرافيتها خاصة، وجعل المقرر فقط دراسة تاريخ فرنسا، وجغرافيتها.

- منع دروس الوعظ والإرشاد وتفسير القرآن في المساجد، والسماح فقط بتحفيظ القرآن مجردا دون تفسير أو شرح في بعض المساجد والزوايا. نشر سياسة التفرقة بين السكان على أساس عنصر البربر والعنصر العربي. تنشيط المؤسسات التبشيرية في كافة مناطق الجزائر، والسعي لتتصير منطقة القبائل أي البربر بصفة خاصة.

أما موقف التيارات والحركات المختلفة في الجزائر من هذا الوضع المزري، فنستطيع أن نحصر مواقفها في الآتي: الصوفية الرافضة والمقاومة للاستعمار، التي كان يقودها شيوخ الزوايا، حيث قادت المقاومة المسلحة منذ دخول المستعمر الجزائر، بدءا من الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري الذي خاض جهادا مسلحا ضد الاحتلال الفرنسي لمدة تقارب العشرين عامًا، وثورة بوعمامة.

ثم الصوفية الخاضعة أو التي تسمى بالطريقة، فقد استغلها المحتل الفرنسي لإظهار الإسلام بشكل يحض على التخلف والكسل والإيمان بالأساطير والخرافات، كما وظفهم المستعمر الماكر في الوقوف في وجه أي وعي أو تحرك يناهض الاستعمار، أو يدعو إلى الإصلاح أو المقاومة، إلا أنها لاقت مقاومة بالحجة والبرهان من قبل جمعية علماء المسلمين الجزائريين. أما العلماء، فبعضهم يؤس من الإصلاح والتغيير فاتجه إلى بعض البلدان الإسلامية، وعمل على التدريس فيها كالشيخ حمدان الونيسي¹ وغيره، ومنهم من استقر في الجزائر² صابرا محتسبا متحملا لضغوطات السلطة الاستعمارية، ينشر الوعي بين الناس عن طريق التعليم والدروس المسجدية والصحافة الحرة. كما ظهرت بعض التيارات السياسية التي راحت تطالب بالحقوق عن طريق العمل السياسي والدخول إلى المجالس النيابية الفرنسية والمشاركة في الانتخابات لكن دون أن تحصل على شيء من الإدارة الفرنسية.

ثانيا: خصائص النصيحة عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لقد سلكت جمعية العلماء في النصيح والإرشاد مسلكا حكيما استلهمته من نصوص الشرع وعمل السلف الصالح مراعية في ذلك خصوصية واقع المجتمع الجزائري وطبيعته، والتحديات التي يواجهها، وشراسة الاستعمار ووحشيته، يقول الشيخ العلامة ابن باديس موضحا منهج الجمعية في النصيح والإصلاح:

¹ - حمدان الونيسي: كان (حيا سنة 1330 هـ / حيا سنة 1912م)، عالم، من زعماء حركة القومية الإسلامية في الجزائر، وأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس. من أهل قسنطينة، درس بها، ثم هاجر إلى المدينة المنورة واستقر بها إلى أن مات. انظر (عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط 2، سنة 1400هـ / 1980م، ص:346).

² - كالشيخ ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ العربي التبسي والشيخ مبارك الميلي وغيرهم من العلماء الذين أسسوا جمعية العلماء فيما بعد.

(وبعد، فإننا اخترنا الخطّة الدّينية على غيرها عن علم وبصيرة وتمسّكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النّصح والإرشاد وبثّ الخير، والثّبات على وجه واحد، والسير في خط مستقيم ... ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسيّ لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عُرف عنّا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقدّنا الأُمّة كلّها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبُلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التّأثير عليها؛ فإنّ ممّا نعلمه ولا يخفى على غيرنا أنّ القائد الذي يقول للأُمّة: إنك مظلومة في حقوقك وإنني أريد إيصالك إليها؛ يجد منها ما لا يجده من يقول لها: إنك ضالّة عن أصول دينك وإنني أريد هدايتك، فذلك تلبّيه كلّها، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها، وهذا كلّهُ نعلمه؛ ولكنّا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وببَيّنّا، وإنّا - فيما اخترناه - بإذن الله لماضون وعليه متوكلون)¹، ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي مؤكداً ذلك: (جمعية العلماء جمعية علمية دينية تهذيبية، فهي بالصفة الأولى تعلّم وتدعو إلى العلم وترغب فيه وتعمل على تمكينه في النفوس بوسائل علنية واضحة لا تتستر، وهي بالصفة الثانية تعلّم الدين والعربية؛ لأنهما شيئان متلازمان، وتدعو إليهما وترغب فيهما، وتنحو في الدين منحاهما الخصوصي، وهو الرجوع به إلى نقاوته الأولى وسماحته في عقائده وعبادته؛ لأنّ هذا هو معنى الإصلاح الذي أسّست لأجله ووقّفت نفسها عليه، وهي تعمل في هذه الجهة أيضاً بوسائل علنية ظاهرة، وبمقتضى الصفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق)².

لقد كان ابن باديس ومن معه من أعضاء الجمعية، من الحكمة وبعد النظر في المحافظة على الجمعية والسير بها وفق خطة منظمة، وبرنامج

¹ - مجلة الصراط، رقم: 15، رمضان 1352هـ.

² - من كتاب سجل مؤتمر الجمعية، ص: 76-77.

واضح، وحسن التعامل مع المخالفين، وتوضيح منهجها والتأكيد في كل مناسبة على أنها جمعية تدعو إلى الإصلاح الديني والتعليمي¹، وعدم الزج بها في المعترك السياسي الذي يفقدها خطها الإصلاحي ويجعلها مثل غيرها من الأحزاب السياسية تلهث وراء الانتخابات والتمثيل النيابي دون أن يكون لها برنامج إصلاح شامل، فقد جاء على لسان رئيسها الشيخ ابن باديس قوله: (إن الجمعية يجب أن لا تكون إلا جمعية هداية وإرشاد، لترقية الشعب من وهدة الجهل والسقوط الأخلاقي، إلى أوج العلم ومكارم الأخلاق، في نطاق دينها الذهبي وبهداية نبيها الأمي، الذي بُعث ليتم مكارم الأخلاق، عليه وآله الصلاة والسلام، ولا يجوز بحال أن يكون لها بالسياسة وكل ما يتصل بالسياسة أدنى اتصال، بعيدة عن التفريق وأسباب التفريق)². ويؤكد ذلك أيضا رئيسها الثاني الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقوله: (مبدأ جمعية العلماء المسلمين هو الإصلاح الديني بأوسع معانيه، الذي كان يعمل له المصلحون فرادى، وإنما كانوا مسيرين بفكرة لا تستند على نظام فأصبحوا مسيرين بتلك الفكرة نفسها مستندة على نظام مقرر، وبرنامج محرر)³.

لقد أدركت جمعية العلماء المسلمين أن السبب في إطالة عمر الاستعمار دهرًا طويلًا في الأمة الجزائرية هو تمكنه من نفس وفكر الإنسان الجزائري،

¹ - بعد مضي ست سنوات من عمر الجمعية، بادر الإمام عبد الحميد بن باديس بوضع إطار حرّ وشامل للجمعية وهو أشبه بميثاق أو دستور وضعه لتسير على هديه الجمعية في نشاطها الإصلاحي والتعليمي، فحدد من خلال هذا الإطار ما اسماه "بدعوة جمعية العلماء وأصولها" ونشره في مجلة الشهاب العدد الرابع، المجلد الثالث عشر في جوان 1937 ثم طبع ووزع على العموم.

² - آثار الإمام ابن باديس، ج:4، ص:55.

³ - من موضع بعنوان: "فلسفة جمعية العلماء"، من كتاب سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذي انعقد بنادي الترقى العاصمة سنة 1935م، المطبعة الإسلامية، قسنطينة، ص:5 إلى 72 - آثار الإمام الإبراهيمي، ج:1، ص:189.

وهو مرض يسميه الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله "بالقابلية للاستعمار"¹، يقول بن نبي: (إن القضية عندنا منوطة أولاً بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته ، من حيث نشعر أو لا نشعر، ومدام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا ، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا ، فلا رجاء في استقلال ،ولا أمل في حرية ، مهما كانت الأوضاع السياسية ، إن الاستعمار لا يتصرف في طاقاتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها مواطن الضعف، فسخرنا لما يريد، كصواريخ موجهة يصيب منها، فنحن لا نتصور إلى أي حد يحتال لكي يجعل منا أبواقاً يتحدث فيها، وأقلاماً يكتب بها انه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا له بعلمه وجهلنا. والحق أننا لم ندرس بعد الاستعمار دراسة علمية كما درسنا هو حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية، وحتى الدينية، من حيث نشعر أو لا نشعر. أننا أمام قضية خطيرة وجديرة بدراسة). وهذا المرض أصابه من جراء تخلفه وانحرافه عن عقيدته وتعاليم دينه، وأن العلاج الصحيح يكمن في إزالة المرض من جذوره بدءاً بالنفس أولاً²، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)³.

¹ - وهو ذات المرض الذي أصاب الأمة الإسلامية فوقعت تحت الاحتلال الأوروبي، وهو المرض نفسه الذي يجعل الكثير من المسلمين اليوم يعيشون التبعية للغرب الذي يعبث بمقدراتهم وثرواتهم، ويقلدونه في كل شيء، ويشعرون بالنقص تجاهه.

² - يقول ابن القيم رحمه الله في بيان قيمة جهاد النفس: (ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله ... كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله، لم يُمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله). زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:6، سنة 1404هـ/1984م، ج:3، ص:06.

³ - الرعد:11.

كما وضح رسالتها ومنهجها في الإصلاح والنصح الشيخ عبد الرحمان شيبان¹. الذي ترأسها بعد إعادة إحيائها من جديد في هذه السنوات الأخيرة إلى حين وفاته منذ بضعة أشهر. إذ يقول:(إن رسالة جمعية العلماء التي تأسست لتحقيقها، هي ترشيد الشعب الجزائري إلى فهم ذاته، والتكيف بها إلى ما ينهض به من كبوته، وتحريره من الاحتلال الفرنسي الجاثم على صدره منذ قرن، وذلك ببث الوعي الإسلامي الوطني في صفوفه، بإحياء مقومات شخصيته بالتربية، والتعليم، والوعظ والإرشاد؛ فيعتصم بعقيدته الإسلامية مطهرة من الخرافة والإلحاد، ويحيي لغته العربية في لسانه وقلمه، ويستنير بتاريخه الحافل بالأمجاد، ويتسلح بوحدته الوطنية، ويطرد من نفسه الخوف من قوة العدو المحتل، واليأس من رحمة الله ونصره، ويثمر على ساعد الجد بتوفير كل ما يقدمه ويرقيه في جميع المجالات الحياتية، ويرفع شأنه في العالمين)².

ومن خلال نصوص الجمعية ومواثيقها وتصريحات مسؤوليها من العلماء يمكن استخلاص أهم ملامح وخصائص النصيحة عند جمعية العلماء في الآتي:

1. العلم أولاً:

¹ - ولد عبد الرحمن شيبان في 23 فيفري 1918م في قرية الشرفة دائرة مشدالة ولاية البويرة، الجزائر. هو أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد إعادة إحيائها بعد استقلال البلاد. تتلمذ على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، ثم أكمل دراسته في جامع الزيتونة بتونس سنة 1938، ونال شهادة التحصيل في العلوم سنة 1947م، وبعد عودته عين مدرسا بمدارس جمعية العلماء. وبعد استقلال الجزائر عام 1962م تقلد عدة مناصب. توفي الشيخ رحمه الله تعالى يوم الجمعة 12 رمضان 1432 هـ / 12 أوت 2011م.

² - عبد الرحمان شيبان، من نص حوار أجراه معه عبد الحميد عبدوس وكمال أبو سنة نشر على صفحات منتدى الألوكة.

آمنت الجمعية إيماناً راسخاً بأن العلم هو السبيل لتخليص الجزائر مما تعاني منه من استضعاف وتبعية وهوان، فراحت تنشر العلم وتبثه بين الناس، وتدعوهم إلى الجد في تحصيل العلم بكل أنواعه النافعة؛ فالعلم أساس التحضر والرقى، وهو أساس حياة الأمم، ويفتح العقول أمام الحقائق، ويخلصها من الأوهام والشبهات، يقول الشيخ ابن باديس: (إن جمعيتمكم جمعية علمية دينية، تدعو إلى العلم النافع ونشره وتعين عليه وتدعو إلى الدين الخالص وتبينه... فوظيفتها هي وظيفة المعلم المرشد الناصح في تعليمه وإرشاده)¹، يقول الشيخ الإبراهيمي: (مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جلية فالمبدأ هو العلم والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرها قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان والأول أصل الثاني، فإذا لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية، والأوطان من الاحتلال متعذراً أو متعسراً، حتى إذا تم منه شيء اليوم، ضاع غداً لأنه بناء على غير أساس، والمتوهم ليس له أمل، فلا يُرجى منه عمل، لذلك بدأت جمعية العلماء من أول يوم نشأتها بتحرير العقول والأرواح، تمهيداً للتحرير النهائي)²، ويقول أيضاً: (وأما اللازم الثالث وهو العلم بمعناه العام، فالحقيقة الواقعة أننا لا زلنا فيه في مؤخرة الأمم، وغاية ما نبني عليه الأساس في هذا الباب هو هذا الشعور الذي نشاهده في جميع طبقاتنا وأوساطنا بلزوم العلم، وهذه الرغبة المتأججة في صدور

¹ - الشريعة: العدد: 01، م 10، الاثنين 24 ربيع الأول 1352 هـ / الموافق ل: 17 جويلية 1933 م - آثار الإمام ابن باديس، ج: 4، ص: 164.

² - آثار البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، سنة 1997 م، ج: 4، ص: 343 و 344..

**الناشئين منا للعلم....إن الأمم الحية في وقتنا هذا ما حييت إلا بالعلم
الاختباري التطبيقي وأساس هذا العلم وإن علا القراءة والكتابة)¹.**

فكان منهج الجمعية في النصيحة هو إزالة عقبة الجهل الذي يحجب معرفة الحقيقة، وهو منهج استلهمته من كتاب الله عز وجل، قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ²)³، فعملت الجمعية على نشر العلم وشنت حربا على الأمية والجهل، وأسست المدارس المختلفة لكل الفئات، فالشيخ الإبراهيمي يستنكر على المتقاعسين من ذوي العلم في عدم القيام بمهمة التعليم ونشر العلم بين الناس، فيقول لهم: (...فأين نسبنا من هؤلاء؟ وأين مساعينا من مساعيهم؟ وأين خطباؤنا؟ لم لا يحملون على الأمية حملة شعواء؟ ولم لا يعطونها من الاهتمام ما أعطوه لقرن الثور وفضائل الشهور؟ وأين شعراؤنا؟ لم لا يشاركون في حملة منظمة ويدعون إليها بقصائدهم المثيرة المحركة؟ وأين علماؤنا الذين برأهم الله من داء الأمية؟ لماذا لا يسعون في تطبيب غيرهم منها؟ أم هم يريدون أن تبقى الأمة أمية ليبقوا سادات ومشائخ، فإن كان هذا مرادهم فأنبئوهم عني أنه ليس من الشرف السيادة على طغام والرعاية على أغنام، وأين أغنياؤنا؟ يخرجون الأموال ويشيدون المدارس ويقفون في مكافحة هذا الداء الفتاك موقف الأبطال)⁴.

فرأت الجمعية أن السبيل للقضاء على الأمية والجهل هو إنشاء المدارس، وتعميرها بطلاب العلم من النساء والرجال، ليحصل لهم وبهم النفع لهذه الأمة،

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:53.

² - محمد: 19.

³ - حيث سبق القرآن الكريم العلم على الاعتقاد لأن هذا الأخير يبنى على العلم وليس على الجهل.

⁴ - من مقال عن الأمية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص:85 - الآثار، ج:1، ص:204.

فكان علماء الجمعية يشرفون بأنفسهم على مدارس الجمعية التي بدأت آنذاك تنتشر في كل أرجاء القطر الجزائري. فرئيس الجمعية الشيخ ابن باديس رحمه الله نفسه خصّص دروسا للرجال والنساء والأطفال¹.

2 . التركيز على الإصلاح العقائدي:

والمعلوم أن العقيدة هي أساس الدين وركيزته، والقطب الذي تدور عليه كل المسائل، فلا تسامح فيها، ولا تقبل التنازل أو الأخذ والرد. وقد تعهدت جمعية العلماء على إصلاح العقيدة أولاً، وذلك بتصنيفاتها مما شابها من البدع ومظاهر الشرك، وما لابسها من الاعتقادات والخرافات والشعوذة الفاسدة، فكانت تركز في نصيحاتها للمجتمع الجزائري على بيان الاعتقاد السليم الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وتربية الناس وبخاصة الناشئة على ذلك، يوضح هذا المسلك الشيخ الإبراهيمي نائب رئيس الجمعية ورئيسها بعد ذلك وهو يرد على من قلل من شأن الإصلاح العقدي قائلاً: (وقد يظنُّ الظانُّون وتنتطقُ ألسنتهم بهذا الظنِّ، أنّ هذه المنكرات التي نحاربها ونشتدُّ في حربها هي قليلة الخطر، ضعيفة الأثر، وأننا غلونا في إنكارها، وأنفقنا من الأوقات والجهود في حربها، ما كان حقيقاً أن يصرف في ناحية أخرى أهم كإصلاح العلميّ؛ وفات هؤلاء الظانين أنّ من اللوازم القريبة لتلك المنكرات التي تشتدُّ الجمعية في محاربتها التزهيدُ في العلم وإفساد الفطر وفشل العزائم، وقتل الفضائل النفسية، وإزالة الثقة بالنفس من النفس، وتضعيف المداير وتخدير المشاعر، وهي رذائل لا تجتمع واحدة منها مع ملكة علمية صحيحة، فكيف بها إذا اجتمعت. فكان من الحكمة أن تبتدئ الجمعية بتطهير النفوس من هذه الرذائل، وأن تجعل من صرخاتها عليها نذيراً للناشئة أن تتلطّخ نفوسهم

¹ - آخر درس ألقاه الشيخ ابن باديس قبل أن يموت ببضعة أيام كان للنساء بعد صلاة العشاء بجامع الأخضر سنة 1940م.

بشيء من أضرارها)¹، ويقول الشيخ الطيب العقبي: (...) وإن دعوتنا الإصلاحية قبل كل شيء وبعده هي دعوة دينية محضة ... وهي تتلخص في كلمتين: أن لا نعبد إلا الله وحده، وأن لا تكون عبادتنا له إلا بما شرعه وجاء من عنده)².

والقانون الأساسي للجمعية يؤكد هذا الأصل في الإصلاح ويوضح كيفية تقديم النصيحة إلى المجتمع الجزائري قصد تقويمه وتخليصه من الوهن ومن البدع والخرافات، فجاء فيه: (والعقيدة الحقّة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنة. فإذا عرضنا أكثر عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأبى سبيل نسله لتقويمها؟ إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلة، فإن التأثير يكون قليلاً، لأنّ النفوس قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة، والفطر قد فسدت بما لابسها من خرافات وأوهام. فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق الناس، فإذا ماتت البدع والخرافات، وصفت الفطر من ذلك الشوب سهل تلقين العقيدة الصحيحة وتلقّتها الأمة بالقبول)³.

وتقديم النصيحة في إصلاح العقيدة جاء عبر عدة وسائط وأساليب، عن طريق التدريس والإرشاد والتأليف، فكانت الدروس المختلفة تلقى في المساجد والنوادي لا تبتعد عن العقيدة، والمقالات تنشر في الجرائد حول العقيدة، وحتى مناقشات أعضاء الجمعية لم تكن إلا من أجل العقيدة، سواء في الداخل مع

¹ - آثار الإبراهيمي، ج:1، ص:144.

² - جريدة السنة: 7/2

³ - آثار الإبراهيمي، ج:1، ص:86.

الطريقين، أو في الخارج مع بعض العلماء والمشايخ كعبد الحي الكتاني¹ ومحمد الطاهر بن عاشور² وغيرهم.

فقد قامت جمعية العلماء بمجهود كبير في إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، والتصدي لرجال الطرق الصوفية المنحرفة التي نشرت الشرك والبدع والشعوذة وجعلت للمشايخ وفرنسا تقديسا في نفوس مريديها، وحاربت عقيدة الإرجاء التي يقول أصحابها من الصوفية المنحرفة "الإيمان قي القلب" فضيعوا وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحاربت عقيدة الجبر التي جعلت من فرنسا قدرا محتوما لا بد من الرضا به، فكان أصحاب الطرق الصوفية المنحرفة يقولون

¹ - الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الإدريسي الحسني. ولد بمدينة فاس ببلاد المغرب الأقصى سنة اثنتين وثلاثمائة وألف للهجرة (1302هـ / 1884م)، وبها نشأ، حيث تلقى العلم بها، وزار المشرق ومختلف دول أوروبا، ثم عاد إلى المغرب، اعتكف على التدريس في الزاوية الكتانية بفاس، وبجامع القرويين، كما عرف بنشاطه الدعوي. وأثناء الحماية الفرنسية حافظ الشيخ عبد الحي الكتاني على علاقات ودية مع سلطات الحماية الفرنسية، ولما نحو الملك محمد الخامس ونصبوا ابن عمه محمد بن عرفة ملكا على المغرب، كان الشيخ واحدا ممن بايعوا ابن عرفة، الشيء الذي أثار حفيظة خصومه ونقموه عليه، ولما عاد محمد الخامس إلى ملك المغرب بعد التوقيع على وثيقة "الاستقلال" اضطر الشيخ إلى مغادرة البلاد إلى فرنسا، حيث استقر بها إلى أن توفي في مدينة نيس الفرنسية يوم الجمعة 12 رجب الفرد عام 1382 هـ، ودفن بمقبرة المسلمين بها. من مؤلفاته: البيان المعرب عن معاني بعض ما ورد في أهل اليمن والمغرب، وتبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة.. انظر ترجمته في: النبذة (ص:222)، قدم الرسوخ فيما لي من الشيوخ (ص:145)، ورياض السلوان (ص:43)، وإتحاف المطالع (578/2)، ومنطق الأواني (ص:171).

² - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من كبار علماء تونس والعالم الإسلامي في العصر الحديث، ولد سنة (1296هـ = 1879م) بتونس حيث تقلد عدة مناصب علمية منها: قاضي القضاة سنة 1921 م، وعمادة مجلس الشورى المالكي، ومشیخة جامع الزيتونة. وقد أدخل عليه عدة إصلاحات جوهرية في مناهجه الدراسية. وله مجموعة من المؤلفات النفيسة، منها: التحرير والتنوير وهو تفسير للقرآن الكريم، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام. وقد توفي رحمه الله تعالى في (13 رجب 1393 هـ = 12 أغسطس 1973م) بعد حياة حافلة بالعلم والإصلاح والتجديد على مستوى تونس والعالم الإسلامي.

للناس: "الله هو الذي جاء بفرنسا إلى بلادنا وهو الذي يخرجها" أي منعتهم من تقديم أسباب المقاومة والجهاد ضد المحتل الكافر، كما جعلت الناس في ذلك الزمان يقولون: "تأكل القوت ومنتظر الموت". فأحيت الجمعية في قلوب الناس عقيدة الولاء والبراء التي تجعل للمسلم عزة وشخصية مستقلة تقيه من تقليد الكفار وإتباعهم ومحبتهم وإعانتهم¹، استجابة لقوله تعالى: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)².

3 . التمسك بالكتاب والسنة:

لقد علمت الجمعية أن التمسك بهدي الكتاب وإرشاد السنة النبوية هو أساس الفلاح والهداية والسعادة ووصول الحق إلى النفوس، وهو الذي ييسر قبول النصيحة والإرشاد، فاعتمدت عليهما، ودعت الناس إلى التمسك بهما، يقول الشيخ ابن باديس: (علم الناس كلهم أن غاية جمعية العلماء هي تعليم الناس أمر دينهم وتفقيهم فيه وتهذيبهم به وإصلاح ما فسد من شؤونهم العامة والخاصة إصلاحا إسلاميا مستمدا من الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة بلسان هذا الدين الكريم)³، يقول الشيخ الإبراهيمي: (يجب أن نتخذ الآيات المنبهة عليه فواتح في المدارس وأن تتجاوب أصدائها في جوانب نفوسنا حتى لا ندخل حرمة إلا بعد أن نكون عرفنا حقه، إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصرهم فيه أبعد أن تكون عن القرآن

¹ - محمد الحاج عيسى. جمعية العلماء والثورة التحريرية الكبرى. خطبة الجمعة ألقاها بنوفمبر 2008 نشرت على موقع منار الجزائر.

² - الممتحنة: 09.

³ - البصائر، العدد: 148، 22 ذو القعدة 1357هـ / 13 جانفي 1939م - آثار الإمام ابن باديس، ج: 6، ص: 277.

منهم في هذا العصر ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وأنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن، فلا عجب ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه، وإنما العجب الذي لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر، وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمة إلى القرآن وصف القرآن وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبره وفهمه¹.

وقد دعت الجمعية المصلحين والناصحين إلى اتخاذ القرآن الكريم منهاجا للدعوة إلى الله تعالى وإسداء النصح للمخطئين، فيقول الشيخ الإبراهيمي: (وليسلك الدعاة سبيلهم إلى نفوس الناس بهذه الأوصاف . ذكر جملة من الأوصاف . الرائعة من هذه الآيات الجامعة فإن ذلك أدعى للتأثير والتأثر وأبلغ في باب التشويق من كل تبويب في الكلام وتحبير وتزويق)²، ويقول أيضا عن القرآن: (والقرآن هو الدستور السماوي الذي لا نقص فيه ولا خلل... فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه، والله يؤيدها ويأخذ بناصرها وهو على كل شيء قدير). ودعوة الجمعية إلى القرآن لا تنفصل عن الدعوة إلى التمسك بالسنة النبوية المبينة لما في الكتاب، يقول الشيخ الإبراهيمي: (الحب الصحيح لمحمد -صلى الله عليه وسلم- فهو الذي يدع عن البدع، ويحمله على الاقتداء الصحيح، كما كان السلف يحبونه، فيحيون سنته، ويذودون عن شريعته ودينه، من غير أن يقيموا له الموالد وينفقوا فيها الأموال الطائلة التي تفتقر المصالح العامة إلى القليل منها فلا تجده). والتمسك بالسنة النبوية هو عمل

¹ - الآثار، ج:1، ص:227.

² - الآثار، ج:1، ص:229.

بالقرآن، لأن محمدا -صلى الله عليه وسلم- كان قرآنا يمشي بين الناس، فمن تمسك بالسنة فقد تمسك بالقرآن، وعمل بما جاء فيه.

وقد سلكت الجمعية في الدعوة والإصلاح والتغيير . التي هي أهم مضامين النصيحة عندها . إلى التمسك بالسنة النبوية مسلكا وسطا وعمقا في النظر، وبعدا عن كل مغالاة وتقطع، يقول الإبراهيمي: (أستم ترون أن أكثر المؤلفين في السير يصرفون اهتمامهم إلى الجهات التي لا محل فيها للاقتداء الذي يزكي النفس - أكثر مما يصرفونه إلى الجهات التي تزكي النفس وتطبعها على الخلال النبوية، يهتمون بالمواطن السطحية البشرية مثل كيفية لبسه وأكله وشربه ونومه وملابسة أهله¹، ويغفلون المكامن الروحية الملكية مثل تعلقه بالله ومراقبته له وتأديته الأمانة الشاقة وصبره وشجاعته وتربيته لأصحابه، وتدريبهم على جهاد أنفسهم حتى تكمل، وعلى السمع والطاعة للحق وفي الحق، وعلى التعاون والتناصح والتحابب والتآخي والاتحاد).

فإذا حققت الأمة التمسك بالقرآن الكريم والتأسي بسنته صلى الله عليه وسلم استطاعت أن تصلح من شأنها، وأن تعود إلى دينها، وأن تتغلب على مظاهر قصورها ووهنها، يقول الشيخ الإبراهيمي: (... يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أم كيف يتفرقون ويضلون وعندهم الكتاب الذي جمع أولهم على التقوى؟ فلو أنهم اتبعوا القرآن لما سخر منهم الزمان وأنزلهم منزلة الضعة والهوان، ولكن الأولين آمنوا فأمنوا، واتبعوا فارتفعوا، ونحن فقد آمنّا إيماننا معلولا، واتبعنا إتباعا مدخولا وكلّ يجني عواقب ما زرع).

¹ - أي أن الشيخ الإبراهيمي يدعو إلى عدم الوقوف عند هذه الأوصاف من السنة وعدم اعتبارها الأصل في التأسي، ولا يفهم من كلامه أنه يوهن من شأنها فقد كان هديه صلى الله عليه وسلم فيها أكمل الهدي.

4 . المحافظة على وحدة الأمة:

تعتبر الجمعية أن الوحدة هي الأساس في تحقيق الكيان الحضاري للأمة، وقوة بنائها وتمكينها من الوقوف في وجه محاولات السيطرة والاستيلاء، يقول ابن باديس رحمه الله: (الواجب على كل فرد من أفراد المؤمنين أن يكون لكل فرد من أفراد المؤمنين كالبنيان في التضام والالتحام¹، حتى يكون منهم جسد واحد²).

وتعتقد الجمعية أن الوحدة واجب شرعي يجب العمل من أجله، يقول ابن باديس: (علينا أن نعتقد بقلوبنا أن الاتحاد واجب أكيد، محتم علينا مع جميع المؤمنين، وأن فيه قوتنا وحياتنا، وفي تركه ضعفنا وموتنا، وأن نعلن ذلك بألسنتنا في كل مناسبة من أحاديثنا، وأن نعمل على تحقيق ذلك بالفعل باتحادنا وتعاوننا مع إخواننا في كل ما يقتضيه وصف الإيمان الجامع العام). لذلك كانت الجمعية تتصح الشعب الجزائري بالاتحاد والتعاون والبعد عن الفرقة والحفاظ على مقوماته ودينه، وتحثه على الالتفاف حول الجمعية كعامل من عوامل الوحدة، يقول ابن باديس: (أيها الشعب الجزائري الكريم ... قد بينت لك

¹ - يشير إلى ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَكَ أَصَابِعُهُ). أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد، رقم: 481، وفي كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، رقم: 2446، وفي كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم: 6027 - ورواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: 4684.

² - يشير إلى ما جاء في الصحيحين عن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى). رواه مسلم بهذا اللفظ في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: 4685. ورواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم: 6011، ولفظه: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى)

جميعتك حقيقة الموقف وحرجه، وكشفت لك شيئا مما تعانيه أنت وتعانيه هي من الأقرباء والبعداء، وهي تدعوك إلى التبصر والتثبت والاتحاد والتجمع والتنبه والتيقظ، وتحثك على الاعتماد على الله وحده، ثم على نفسك والصادقين من أبنائك، وما الصادقون إلا الذين يحافظون بأقوالهم وأعمالهم ومواقفهم على إسلامك وعروبتك وجميع مقوماتك، ويناضلون بالنفس والنفيس عن جميع حقوقك).

لقد حرصت جمعية العلماء في عملها الإصلاحي وتقديم النصيحة على وحدة الأمة الجزائرية واجتماع كلمتها على الحق، لأن وحدة الأمة هو أساس قوتها، وهو السبيل إلى التحرر من كل ما قد يأسرها من جهل أو استعمار، وهو ما يلاحظ من خلال أقوال علمائها، حيث دعا الشيخ البشير الشعب الجزائري إلى الاتحاد فكتب مقالا تحت عنوان "وحدة الدين واللسان"، قائلا: (الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلثة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين... فالأمم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان، وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي التفرق، ويأبى لها دينها - وهو دين التوحيد - إلا أن تكون موحدة، وتأبى لها الفضائل الإسلامية إلا أن تكون مظهرا للفصيلة في هذا العالم الإنساني، فإذا كان في تلك الأمم من يضار الفضيلة أو يخونها في اسمها فما ذلك من الإسلام في شيء، وإنما هو انحراف مزاج سببه سوء فهم، أو غلبة وهم، أو دعوى طباع أو هو تقليد وإتباع).

فحاولت فرنسا أن تفرق بين الشعب الجزائري، فأثارت بينهم العصبية والجنس والقبلية والمذهبية، فحذر علماء الجمعية الأمة الجزائرية من خطورة التفرق، يقول ابن باديس رحمه الله: (يا هؤلاء.. إن الجمعية ليست عاجزة عن

مقاومتكم، وإظهار خطتكم، وكشف باطلكم، ولكنها تعلم ما تحتاج إليه الأمة اليوم، من اجتماع الكلمة، وعدم الفرقة، وتوحيد الصفوف، فلماذا تركتكم راجية لكم أن تدركوا حقيقة الموقف فتعلموا بما يقتضيه)¹، ويقول الشيخ الإبراهيمي مبينا خطورة التفرق والتعصب : (...وظاف بهم طائف من العصبية التي محاها الإسلام لأول ظهوره، وإن العصبية لأصل البلاء كله، فنشأت فيهم العصبية إلى الجنس وإن لم يعمر من التاريخ صفحة، والعصبية إلى الرأي وإن لم يتعلق به من السداد نفحة، والعصبية للآباء وإن لم يكن لهم في الصالحات أثر، والتعصب للأشياخ حتى فيما زاغ فيه الفكر وعثر. لهذه العصبيات، صارت الأمة الواحدة أمما وصارت السبيل الواحدة سبلاً إذ نشأت عن العصبيات آثارها اللازمة لها فساءت الحال وتراخت حبال الأخوة الإسلامية، وضعف أثر الوازع الديني في النفوس فضغفت لضعفه أعظم ركن في الإسلام وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فطغت المحدثات على السنن...)².

لقد أدركت الجمعية أن وحدة الدين ووحدة اللسان، هي عوامل الإتحاد بين أفراد الشعب الجزائري، وبين الأمة الإسلامية، وأن تمسك الجزائريين بالإسلام هو سبيل وحدتهم، وهو عماد قوتهم، وطريق تحررهم من الاستعمار الغاشم الظالم، وهو سر عزة سلف هذه الأمة وهو كذلك لخلفها، به سادوا وانتصروا على أعدائهم فإذا ابتغى الخلف العزة في غيره أذلهم الله تعالى، يقول الشيخ البشير: (لو صدقت نسبة المسلمين إلى الإسلام، وأُشربوا في قلوبهم معانيه

¹ - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج:6، ص:173.

² - من مقال بعنوان الإسلام والمسلمون شجون من الحديث عنهما وعن الإصلاح الديني، نشر بجريدة "السنة" بتاريخ 6 محرم 1352هـ/ فاتح ماي 1933م. آثار الإمام الإبراهيمي، ج:1، ص:110.

السامية ومثله العليا، واتخذوا من كتابه ميزانا ولسانه العربي ترجمانا، واتجهوا إلى هذا الكتاب الخالد بأذهان نقية من أوضار المصطلحات، وعقول صافية لم تعلق بها أكتار الفلسفات، لسعدوا به كما أراد الله، ولأسعدوا به البشر كما أمر الله، ولأصبح كل مسلم بالخير والصالح سفيرا، ولكان المسلمون في أرض الله أعز نفرا وأكثر نفيرا، ولكان التقاء المسلم بالمسلم كالتقاء السالب بالموجب في صناعة الكهرباء ينتج النور والحرارة والقوة¹.

ثالثا: وسائل تحقيق النصيحة عند جمعية العلماء:

1 . التعليم وإنشاء المدارس:

لقد انتشر الجهل بين الجزائريين بفعل سياسة التجهيل التي مارسها المستعمر الظالم ضد الشعب الجزائري، حيث كانت الأمية تجاوز ثمانين في المائة في أوساط الجزائريين. والإحصائيات تشير إلى قلة الأطفال المتدربين خلال الفترة الاستعمارية وقلة المدارس الحكومية التي أنشأتها فرنسا لفئة قليلة من الجزائريين، في حين كان ما يقرب من نصف المليون طفل محروما من التعليم نظرا لقلة المقاعد المدرسية. إضافة إلى ذلك هو رفض بعض الآباء إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس التي كانت برامجها لا تخلو من نشر الإلحاد وتزييف الحقائق التاريخية إضافة إلى منع اللغة العربية فيها والدين الإسلامي. من هنا أدركت جمعية العلماء أهمية التربية والتعليم في تحقيق مقاصدها العقديّة والفكرية، وأن التعليم هو أساس الإصلاح، فركّزت على التعليم الإسلامي، بإنشاء المدارس، وحثّت الجزائريين وشجعتهم على إرسال أبنائهم إلى مدارسها، قصد تعليم وتنقيف أكبر عدد ممكن من أبناء الجزائريين، فالتعليم هو الذي يصبغ المتعلم بالصبغة التي يكون عليها في مستقبل حياته، يقول الشيخ ابن باديس: (لن يصلح العلماء إلّا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو

¹ - كلمة أقيمت بإذاعة باكستان في أبريل 1952. آثار الإمام الإبراهيمي، ج:4، ص:60.

الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من علمه لنفسه وغيره فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم، ونعني بالتعليم التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه. ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته فيما كان يعلم صلى الله عليه وآله وسلم وفي صورة تعليمه¹.

كما اهتمت الجمعية بالتعليم المسجدي، فلم يعد المسجد يقتصر دوره على الصلاة والقاء المواعظ وخطب الجمعة، فجعلت من المساجد مدارس للتعليم، وذلك إدراكاً منها بأن المسجد والتعليم في الإسلام مترابطان، وهو الذي كان عليه المسجد في الصدر الأول من الإسلام. فوضعت برامج واسعة لنشر التعليم الديني وتدريب العربية لكل الفئات: للصغار المبتدئين، ولل كبار والعمال، والنساء، واهتمت أيضا بالمتعلمين في المدارس الحكومية بتكميل معلوماتهم، فشيّدت لذلك المدارس والمعاهد².

ولم يقتصر دور جمعية العلماء التربوي والتعليمي داخل الوطن فحسب، بل أسست مدارس للمهاجرين الجزائريين بفرنسا حيث يشكلون جالية كبيرة. فقد تنبّهت الجمعية إلى الأخطار المحدقة بأولئك المهاجرين المُعرّضين لخطر الذوبان في الحضارة الأوروبية، والابتعاد عن أصول دينهم، فأرسلت إليهم المعلمين والوعاظ والمرشدين، وأسست لهم النوادي والمدارس لتعليم أبنائهم.

وقد كان منهج الجمعية في التعليم يقوم بمهمة مزدوجة، المهمة الأولى تعليم مبادئ الدين والعربية، والمهمة الثانية مواجهة المسخ الاستعماري عن

¹ - الشهاب : ج11، م10، غرة رجب 1353هـ /الموافق ل: 10 أكتوبر 1934م - آثار الإمام ابن باديس، ج:4، ص:77.

² - أسست مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ومدرسة دار الحديث بتلمسان التي ظلت تشكل قلعة للتعليم الإسلامي تحت إشراف الشيخ الإبراهيمي.

طريق منهج الإخلاء ثم الملء، أي بيان فساد المعلومات المشوهة التي أعطتها فرنسا للتلاميذ لتعيد الجمعية عبر مدارسها بعد ذلك تزويد المتعلم بمعلومات جديدة صحيحة ودقيقة عن أصله ودينه وهويته.

لقد استطاعت الجمعية في ظل الظروف الاستعمارية أن تؤسس المدارس رغم رقابة سلطة الاحتلال الذي كان يخشى من هذه المدارس، فكانت جيلا من الأبطال فجروا الثورة¹ فيما بعد دامت سبع سنوات دفعت فيها الجزائر ما يزيد عن مليون ونصف مليون من الشهداء.

إن رجال الجمعية زرعوا حب العلم والتعلم في الأجيال وفق منهج سليم وتعليم قويم ساروا فيه على منهج السلف، وتمكنت الجمعية في خلال عشرين سنة من وجودها أن تؤسس ما يقارب 150 مدرسة ومعهدا موزعين على كامل الإقليم الجزائري، وقد بلغ عدد تلاميذها ما يزيد عن خمسين ألف بين الذكور والإناث، يقوم على تربيتهم وتعليمهم ما يقرب من ألفي معلم، نافست بذلك المدارس الحكومية التغريبية. ودعمت جمعية العلماء رسالتها في التعليم بإرسال البعثات إلى بلاد الإسلام كالزيتونة².

2. دروس الوعظ والإرشاد الديني في المساجد العامة:

وظفت جمعية العلماء المساجد في توجيه الجمهور وصناعة الرأي العام، ومخاطبة الناس الذين يؤمنون ببيوت الله للصلاة عن طريق الدروس العامة وخطب الجمعة التي كانت تتناول قضايا الناس وتعالج مشاكلهم الواقعية، فإلى جانب الدروس التعليمية في اللغة³ والفقه⁴ والعقيدة¹، كان العلماء يلقون دروسا

¹ - اندلعت الثورة الجزائرية في 01 نوفمبر 1954م وهي من الثورات الكبرى في القرن العشرين ودامت إلى غاية إعلان الاستقلال في 05 جويلية 1962م.

² - وكان مشروع الشيخ ابن باديس إرسال بعثة من البنات إلى الشام إلا أن المنية عاجلته.

³ - فكانت تدرس بعض متون اللغة العربية كألفية ابن مالك والأجرومية.

⁴ - كتدريس متن خليل في الفقه المالكي

عاما في التفسير وشرح الحديث التي كان لتلك الدروس بعدا واقعيا، وأثرها في نشر الوعي العام، وتصحيح المفاهيم، وبيان دسائس الاستعمار ومكره، قال الإبراهيمي: (أما في المسجد فطريقة الجمعية في الوعظ والتذكير هي طريقة السلف، تذكر بكتاب الله، تشرحه وتستجلي عبره، وبالصحيح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبيّنها وتنشرها، وبسيرته العملية، تجلوها وتدلّ الناس على مواضع التأسي منها، ثم سير الصحابة وهدْيهم، ثم سير حملة السنة النبوية وحملة الهدي المحمدي في أقوالهم وأعمالهم كذلك)².

3. تنظيم محاضرات ولقاءات في النوادي في شؤون الحياة العامة:

فتحت الجمعية النوادي³ واقتحمت الأماكن العامة للاحتكاك بال جماهير واللقاء المحاضرات في التهذيب والأخلاق وشؤون الحياة العامة، كما استغلت النوادي⁴ التي أسسها الشعب الجزائري من قبل والتي ظهرت في مطلع القرن العشرين، كنادي الترقّي⁵ الذي يُعتبر أكبر نادي في الجزائر آنذاك، وكان

¹ - كالعقائد الإسلامية التي كان يملها ابن باديس على طلبته، وقد تولى أحد تلامذته الأستاذ محمد الصالح رمضان طباعتها.

² - من كتاب سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص: 64.

³ - كلمة النادي أصلها مأخوذ من دار الندوة، وقد ذكرت في القرآن الكريم أكثر من مرة قال تعالى: «...وتأتون في ناديك المنكر) العنكبوت: 29، كما تعني دار الندوة كل دار يرجع إليها ويجتمع فيها. (جماعة من العلماء، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، 2000) ص: 38)

⁴ - والمقصود بالنوادي التي أسسها الجزائريون في الفترة الاستعمارية هي مؤسسات شعبية حرة أسسها مجموعة من المثقفين والأعيان وغيرهم لأغراض ثقافية ودينية مستقلة عن سلطة الاحتلال كفضاء للالتقاء والتنقيف وطرح القضايا المختلفة. (خالد مرزوق والمختار بن عامر، مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان، آثار ومواقف 1956/1907 (مركز التصدير، تلمسان-الجزائر - 2003، ص: 35)

⁵ - نشأ نادي الترقّي سنة 1926 الذي صادف تأسيسه مرور قرن على الحصار الفرنسي للجزائر سنة 1827م، وكان هذا بتكاثر جماعة من أعيان العاصمة وأغنيائها الذين أسسوا ناديا تحت اسم

علماء الجمعية ومصلحوها يلقون المحاضرات والدروس في هذه النوادي غير مكتفين بالمساجد ولا بالمدارس التي أسسوها، وكان نشاطهم في هذه النوادي قبل تأسيس الجمعية، وازداد بعد تأسيسها مما يدل على إدراك أهمية النوادي في الاتصال بال جماهير ونشر الوعي بينهم. فالشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى بعد تأسيس نادي الترقى في العاصمة كان أول محاضر به¹ الذي ألقى محاضرة حول تاريخ النوادي والاجتماع طيلة العصر الجاهلي ثم العصر الإسلامي إلى حد القرن العشرين، وبين أثرها في إحياء الحياة الفكرية والتربوية عند سائر الأمم.

إن النوادي في تلك الفترة في الجزائر تختلف في رسالتها عما كان منتشرا في بعض البلدان، فلم تكن نوادي للمجون والخمر والرقص والاختلاط، بل للرقى الديني والاجتماعي ونشر الوعي والنصح العام وطرح القضايا العامة للنقاش وتبادل الرأي وبث اليقظة الفكرية والثقافية للمسلمين الجزائريين²، فنادي الترقى مثلا كان الغرض من تأسيسه هو طرح ومناقشة الوضعية العامة التي آلت إليها الجزائر العاصمة في النصف الأخير من العشرينيات، لذلك تعاقب على هذا النادي عدة علماء يلقون المحاضرات والندوات العلمية في الفكر واللغة والأدب وقضايا الأمة، كالأستاذ أحمد توفيق المدني³، والشيخ محمد

نادي الترقى وفتحوا له مقرا ضخما بوسط العاصمة وهو إنجاز مهم يدل على حياة فكرية جديدة ووسيلة لنشر الوعي وتكاثف الجهود، انظر: (سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج:3، ص:20، - الشهاب، المجلد:03، السنة الثالثة، جويلية 1927، ص:120)

¹ - كان ذلك بطلب من مؤسسي النادي في يوم 18 جويلية 1927 عرفانا بعلمه وفضله وفتاحة خير على النادي.

² - محمد العاصمي، أعظم ناد في الجزائر وإن كان بعد 100 عام ، الشهاب ، المجلد 03 ، السنة الثالثة، العدد107 (04أوت 1927) ص154.

³ - أحمد توفيق المدني (1894/1984) من مواليد مدينة تونس وهو من عائلة جزائرية ، زعيم سياسي قدير درس بالزيتونة وشارك في النضال الوطني بتونس ضمن الحزب الدستوري ، سجن عدة

البشير الإبراهيمي، والطبيب العقبي، والشعراء والأدباء وكثفت الجمعية من نشاطها فيه، بدليل أن تأسيسها سنة 1931م كان في نادي الترقى. فالنوادي كانت منبرا يوجه منه المصلحون ضرباتهم للفساد الخلقي، وفصح أساليب الاستدمار الذي كان يفرق بها بين الجزائريين، وكان فضاء لإحياء اللغة العربية عن طريق تنظيم منافسات في الشعر والخطابة والنثر. وكان لها تأثيرها في الشباب وعموم الناس الذين كانوا يحضرون المحاضرات والأنشطة المختلفة. كما كان للنوادي دورا كبيرا في محاربة الآفات كالخمر والتسول والسرقة والزنا، وشحذ همم الناس ومحاربة التنصير وإثبات الشخصية الإسلامية الجزائرية من خلال المحاضرات والخطب الواعظة. كما عملت بعض النوادي كنوادي الترقى على مساعدة الفقراء والمحتاجين والذين كانوا محل تركيز من قبل البعثات التبشيرية المسيحية.

4 . الصحافة:

تنبهت جمعية العلماء إلى الدور المهم الذي تؤديه الصحافة¹ في الدعوة والإصلاح وتقديم النصح للمجتمع الجزائري وتبليغ صوتها إلى جمهور عريض

مرات ، له عدة مؤلفات منها كتاب الجزائر 1931، وكتاب هذه هي الجزائر 1957، وكتاب حياة كفاح في ثلاثة أجزاء ،عرف بنشاطه السياسي والصحافي للمزيد أنظر: محمد الطاهر العدواني ، مجلة التاريخ، العدد: 18 (م . و.ف. م، الجزائر، 1985) ص:169.

¹ - اهتم العلماء والمصلحون الجزائريون بالصحافة واعتبروها وسيلة لنشر الوعي والتصدي للمخططات الاستعمارية، وذلك منذ سنة 1908 م حيث أصدر الرسام الكبير عمر راسم جريدة: "الجزائر". وفي أفريل من سنة 1913م صدرت جريدة: "الفاروق" للشيخ عمر بن قدور، الذي يعتبر من أتباع المدرسة الإصلاحية الإسلامية المتأثرة بالشيخ محمد عبده ومجلة المنار للشيخ رشيد رضا. وفي عام 1913م أصدر الأستاذ عمر راسم مرة أخرى جريدة أخرى بعنوان "نو الفقار" في شكل مجلة مصورة متأثرا بفكر ودعوة محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وكانت هذه الجريدة كما يصفها الشيخ أحمد توفيق المدني في مؤلفه (كتاب الجزائر) أول جريدة عربية اكتشفت الخطر الصهيوني ونبهت عليه. وفي سنة 1919م أصدر الأمير خالد جريدة "الإقدام" باللسانين (العربي والفرنسي)

من الناس. وقد تأثرت في ذلك بالحركة الفكرية في المشرق والتي كان لها صحتها الخاصة. علما أن بعض علمائها المؤسسين أنشؤا صحفا ومجلات قبل نشأة الجمعية بسنوات كالشيخ ابن باديس¹ الذي أنشأ جريدة المنتقد

وكانت أول جريدة عربية جريئة ودام صدورها إلى غاية سنة 1925م بعد نفي الأمير خالد إلى الإسكندرية بمصر. وفي سنة 1924م أصدر السيد عمر بن قدير مرة ثانية جريدة "الفاروق" في صورة مجلة أسبوعية ثم أوقفها من تلقاء نفسه واشترك مع الأستاذ محمد بن بكير في إصدار جريدة باسم " الصديق " غير أنها لم تعمر طويلا هي الأخرى. وفي عام 1923 م صدرت جريدة " لسان الدين " وهي أسبوعية دينية سياسية أصدرها السيدان : مصطفى بن حافظ وابن عبد العزيز حسن.

¹ - كانت أول مشاركة له في الصحافة سنة (1919 م) في جريدة "النجاح" التي كانت تصدر في مدينة قسنطينة لصاحبها عبد الحفيظ بن الهاشمي وقد اشترك الشيخ عبد الحميد ابن باديس في تأسيسها والكتابة فيها باسم مستعار هو "القسنطيني" ثم انفصل عنها، لأنها كانت في بدايتها إصلاحية ثم انحرفت وصارت لسانا من السنة الإدارية الاستعمارية في الجزائر، واستمرت هذه الجريدة في الصدور حتى بداية الجهاد المسلح سنة 1954 م أين أعدم رئيسها من طرف المجاهدين لذات السبب الذي انحرفت لأجله الجريدة. ثم أحس الشيخ ابن باديس بضرورة توسيع مجال الدعوة والنصح ليشمل كل الشعب، فخاض العمل الصحفي وبرع فيه، فأصدر في 03 جويلية 1925م الموافق لـ 11 ذي الحجة سنة 1343 هـ جريدة " المنتقد " ، وكان هدف الجريدة هو تسليط الضوء على أخطار المستعمر ومحاربة بدع وضلالات رجال الطرق الصوفية التي خدرت المجتمع الجزائري وانحرفت به عن الإسلام الصحيح، وكان شعارها: (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء). وفي افتتاحية العدد الأول بين ابن باديس أهدافه وغاياته وأراد أن يعرف دعوته للناس فكتب يقول: (باسم الله، ثم باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون... وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها. نحن قومٌ مسلمون جزائريون، فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كمال إنساني ، ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر)، ثم يقول: (إننا سننتقد الحكام، والمديرين، والنواب، والقضاة، والعلماء، وكل من يتولى شأنًا من أكبر كبير إلى أصغر صغير، من الفرنسيين والوطنيين، ونناهض المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين). وفي نفس السنة (أي في سنة 1925م) وبعد أن أوقف الاستعمار جريدة "المنتقد" أصدر الشيخ جريدة "الشهاب" وكانت في أول الأمر أسبوعية ثم تحولت في فبراير من سنة 1929 م إلى مجلة شهرية، تحتوي افتتاحية، ومقالات وفتاوى وقصصا وأخبارا وطرائف وتراجم وغير ذلك.

والشهاب التي استمرت بعد تأسيس الجمعية وكان لها تأثير إعلامي قوي وفاعل، واجه الشيخ ابن باديس في سبيل ذلك الكثير من المصاعب والعقبات، جعلت المستعمر البغيض يصدر قرارا بغلقها غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية في شهر سبتمبر من عام 1939 م¹.

وكانت أول جريدة أصدرتها جمعية العلماء المسلمين بعد تكوينها بسنتين هي جريدة "السنة المحمدية" وكان أول عدد منها في الثامن من ذي الحجة سنة 1351 هـ (1933 م)، وسرعان ما أوقفتها الإدارة الاستعمارية بحيث صدر آخر عدد منها في 10 ربيع الأول سنة 1352 هـ الموافق لـ 03 جويلية 1933 م. بعدها أصدرت الجمعية جريدة أخرى هي "الشرعية المطهرة" في 17 جويلية سنة 1933 م، أي بعد توقيف "السنة المحمدية" بأربعة عشر يوما فقط، وأوقفتها هي الأخرى الإدارة الاستعمارية في 28 أوت سنة 1933 م أي أنها لم تستمر في الإصدار سوى أربعين يوما. ثم أصدرت الجمعية جريدتها الثالثة تحت اسم "الصراط السوي" في 11 سبتمبر 1933 م، أي بعد أقل من شهر من توقيف "الشرعية المطهرة" إلا أنها هي الأخرى تم توقيفها من طرف الإدارة بعد ثلاثة أشهر فقط من صدورها وذلك في شهر يناير سنة 1934 م. وأصدرت السلطة الاستعمارية قرارا بحرمان الجمعية من إصدار أية جريدة، فتعطلت صحافتها مدة سنتين من يناير سنة 1934 م إلى سبتمبر سنة 1935 م. وبعد جهود كبيرة بذلتها الجمعية لأجل الحصول على

¹ - كتب الإمام حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب التي أسسها في القاهرة في نهاية الأربعينيات كلمة تقدير وجهها للإمام عبد الحميد بن باديس ومجلته الشهاب فقال: "قامت مجلة الشهاب الجزائرية التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد، مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد. وإنا لنرجو أن تقفوا "الشهاب" المصرية الناشئة أثرها وتجدد شبابها، وتعيد في الناس سيرتها في خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام، على أن الفضل للمتقدم وفضل السابق ليس له كفاء".

رخصة من الحكومة الفرنسية بإصدار جريدة باسم الجمعية، صدرت في 27 سبتمبر 1935 م جريدة : "البصائر". وقد استمرت مدة تؤدي رسالتها وتوقفت قبل الحرب العالمية الثانية، ثم استأنفت صدورها من جديد في سلسلتها الثانية ابتداء من 25 يوليو سنة 1947 م واستمرت إلى أن توقفت ثانية في السادس من أبريل سنة 1956 م أي بعد حوالي سنتين من قيام الجهاد المسلح سنة 1954 م . وتعد البصائر من أهم الجرائد التي أصدرتها الجمعية لأنها كانت تمثل لسان حال الجمعية، تنتشر أفكارها، وتدافع عن قضايا العروبة والإسلام إلا أنها كانت تناقش جميع القضايا التي تهم الأمة الجزائرية والعالمين العربي والإسلامي.

وأهمية جريدة البصائر تكمن في أنها كانت تتناول أبوابا متنوعة تقدم فيها النصح إلى المجتمع الجزائري، ومن هذه الأبواب:

- 1- حقائق الإسلام ومحاسنه، شرحها وبيانها.
- 2- إحياء السنن الميثة التي تركها الناس وذلك بالقول والفعل.
- 3- التاريخ الإسلامي : عبره وعظاته وسير أمجاده .
- 4- الأمراض الاجتماعية.
- 5- الحث على العلم وتنبيه الناس إلى أهميته.
- 6- الكتابة في موضوع اللغة العربية وآدابها.

كما ظهرت بعض الصحف الإصلاحية من قبل بعض العلماء والمصلحين الذين كانوا أيضا من بين المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، منها جريدة "الجزائر" أشرف على إصدارها الشاعر والصحفي محمد السعيد الزاهري عطلتها وأوقفتها السلطات الفرنسية فور صدورها مباشرة.

جريدة "الحق" صدرت سنة 1936 م بمدينة بسكرة. كما أصدر الشاعر والأستاذ وأحد أعمدة الصحافة الإصلاحية في الجزائر أبو اليقظان مجموعة من الجرائد كلها أوقفت نظرا لجرأتها معالجتها لمختلف القضايا¹.

والملاحظ أن علماء الجمعية قاموا بنشاط صحفي قبل نشأة الجمعية وبعد نشأتها مما يدل على النشاط الفكري الذي كان يمتاز به العلماء، وعلى أهمية الصحافة في نظرهم التي تمثل عندهم وسيلة مباشرة من وسائل الاتصال بال جماهير ونشر أفكارها على أوسع نطاق وإسماع صوتها خارج القطر الجزائري، وإحدى أدوات التربية والتعليم التي تسهم في تصحيح عقائد الناس، ونشر الفضيلة ومحاربة البدع والخرافات وتقويم السلوك وتبصير العقول، يقول ابن باديس رحمه الله تعالى: (ننشر في هذا الباب من مجلة (الشهاب) ما فيه تبصرة للعقول أو تهذيب للنفوس، من تفسير آية كريمة أو حديث شريف، أو توضيح لمسألة في أصول العقائد أو أصول الأعمال، معترضين بأنظار أئمة السلف الذين لا يُرتاب في رسوخ علمهم وكمال إيمانهم، وأئمة الخلف الذين درجوا على هديهم، في نمط وسط بين الاستقصاء والتقصير).

فكانت الصحافة من أهم الوسائل التي اتخذتها الجمعية بطريقة منهجية وفعالة في التغيير والإصلاح والنصح ونشر الوعي وربط الناس بدينهم ووطنهم، وإيقاظ همهم وتحفيز نفوسهم لطرد المستعمر الفرنسي، ومحاربة الجهل والشعوذة التي انتشرت المجتمع الجزائري.

¹ - منها جريدة (وادي ميزاب) صدر منها 119 عددا، من 1926/10/01 إلى 1929/01/18 م. وجريدة (ميزاب) صدر منها عدد واحد، 1930/01/25 م. وجريدة (المغرب) 38 عددا، من 1930/05/29 إلى 1931/03/09 م. و(النور) 78 عددا، من 1931/09/15 إلى 1933/05/02 م. و(البستان) 10 أعداد، من 1933/04/27 إلى 1933/07/13 م. و(النبراس) 6 أعداد، من 1933/07/21 إلى 1933/08/22 م. و(الأمة) 170 عددا، من 1933/09/08 إلى 1938/06/06 م. و(الفرقان) 6 أعداد، من 1938/07/08 إلى 1938/08/03 م.

5 . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الوسائل التي اعتمدتها جمعية العلماء في تقديم النصيحة إلى الغير، واعتبرته من أساسيات مهام علمائها، وهي بذلك تمتثل لما دعا إليه القرآن الكريم ووصف به خيرية هذه الأمة من ضرورة القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي ترى بأن أولى من يقوم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم العلماء بما أوتوا من علم وحكمة، فصالح الناس بصلاح علمائهم، والنصيحة إنما تكون من أهل العلم، وإنما الناس يتقبلون النصيحة من العلماء الثقات، يقول الشيخ ابن باديس: (لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصالح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماءهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم)¹، ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي وهو يشرح وظيفة عالم الشريعة: (وواجب العالم الديني أن ينشط إلى الهداية كلما نشط الضلال، وأن يسارع إلى نصرته الحق كلما رأى الباطل يصارعه، وأن يحارب البدعة والشر والفساد...وواجبه أن ينغمس في الصفوف مجاهدا ولا يكون مع الخوالب القعدة، وأن يفعل ما يفعل الأطباء الناصحون من غشيان مواطن المرض لإنقاذ الناس منه، وأن يغشى مجامع الشرور لا ليركبها مع الراكبين، بل ليفرق اجتماعهم عليها)²،

¹ - الشهاب : ج11، م10، غرة رجب 1353هـ /الموافق ل: 10 أكتوبر 1934م - آثار الإمام ابن باديس، ج:4، ص:77.

² - في مقال له بعنوان وظيفة علماء الدين، نشر في مجلة المنهل من ثلاثة أجزاء، وهذا النص مأخوذ من الجزء الثالث، في ربيع الأول 1372هـ/1952م، جدة - الآثار، ج:4، ص:117.

ويقول أيضا: (أرأيت لو كان علماء الدين قائمين بواجب التذكير بالقرآن، مؤدين لأمانة الله، راعين لعهدده في أمة واحدة، أكانت الأمة الإسلامية تصل إلى هذه الدركة التي لم تصل إليها أمة. فهي كثيرة العدد تبلغ مئات الملايين ولكنها غثاء كغثاء السيل)¹، ويقول الشيخ العقبي في بيان مسؤولية العلماء: (العلماء هم حملة هذا الدين، وهم المسؤولون عن تبليغه وهم الذابون عنه والمدافعون عن حماه. فمن استمسك بغرزهم واهتدى بهديهم نجا، ومن صد عنهم وأعرض عما جاؤوا به ضلَّ وغوى)².

وهؤلاء هم أهل العلم الصحيح الداعون إلى التوحيد والسنة يستمدون ذلك من أصول الدين وفهم السلف واجتهاد من اتبعهم بإحسان من العلماء. وهم الذين يستحقون أن يكونوا ورثة الأنبياء.³

قال الشيخ مبارك الميلي: (إن الأمة إذا فقدت العالم البصير، والدليل الناصح، والمرشد المهتدي؛ تراكت على عقولها سحائب الجهالات، وران على بصائرهم قبائح العادات، وسهل عليها الإيمان بالخيالات، فانقادت لعالم طماع وجاهل خداع، ومرشد دجال ودليل محتال، وازدادت بهم حيرتها واختلت سيرتها، والتبست عليها الطرائق، وانعكست لديها الحقائق، فتتهم العقل، وتقبل المحال، وتشرد من الصواب، وتأنس بالسراب)⁴.

¹ - المرجع نفسه.

² - جريدة السنة، ج:1، ص:12.

³ - عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهمًا إيمان ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر". أخرجه الترمذي في سننه في كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: 2606 - ورواه أبو داود في سننه في كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم: 3157 - ورواه ابن ماجه في سننه في المقدمة، فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: 219.

⁴ - الشرك ومظاهره: ص: 161.

ورغم الظروف التي كانت تعيشها الجمعية، فكانت تمارس وظيفة الاحتساب بكل حكمة وعلم، لتكثير الخير وتقليل الشر، ولم تأخذها في الله تعالى لومة لائم، وتحملت كل الصعاب في ذلك من تهديدات الإدارة الاستعمارية، وترى الطرقية السائرة في ركب الاستعمار، ومكر بعض المثقفين الذين تغذوا بالثقافة الفرنسية، حتى قال ابن باديس رحمه الله: (تستطيع الظروف أن تكيفنا ولكنها لا تستطيع . بإذن الله . إتلافنا)¹.

وللعلماء دور مهم في التغيير، ولهم أثرهم في تغلغل النصيحة إلى قلوب المخاطبين، وهم محل ثقة من الناس، يتولون قيادة الأمة إلى الخير وهي ترجع إليهم في أمور دينهم ودنياهم، يقول الشيخ الإبراهيمي: (ولعلماء الإسلام سلطان على الأرواح، مستمد من روحانية الدين الإسلامي وسهولة مدخله إلى النفوس: تخضع له العامة عن طوعية ورغبة، خضوعاً فطرياً لا تكلف فيه، لشعورها بأنهم المرجع في بيان الدين، وبأنهم لسانه المعبر حقاً عن حقائقه، والمبين لشرائعه، وبأنهم حراسه المؤمنون على بقائه، وبأنهم الورثة الحقيقيون لمقام النبوة؛ وكان العلماء يجمعون بين وظيفة التبيين في التعدييات، وبين وظيفة التقنين في المعاملات؛ أما الخلفاء فلم تكن وظيفتهم . في الحقيقة . إلا التنفيذ لما يراه العلماء من مصلحة في المعاملات الفردية أو الاجتماعية)².

لكن إذا تخلى هؤلاء العلماء عن دورهم في بيان الحق وأخلدوا إلى الدنيا وزخارفها فإن في ذلك هلاكاً للمجتمع، وتمكيناً للسفهاء من نشر ضلالهم بين الناس، يقول الشيخ الإبراهيمي: (ما ظلم الله العلماء، ولكن ظلموا أنفسهم؛ ولم يشكروا نعمة العلم، فسلبهم الله ثمراته من العزة والسيادة، والإمامة والقيادة؛

¹ - الشهاب 3/5 1346-1347 هـ.

² - جريدة البصائر، العدد: 36، سنة: 1948م.

وكان لخلو ميدان السلطة والأمر منهم أثر فاتك في عقائد المسلمين وأخلاقهم؛ وكان من نتائجه إلقاء الأمة بالمقادة إلى مَنْ يُضِلّ ولا يهدي من المشعوذين الدجالين. فأضلّوها عن سواء السبيل، ومكنوا فيها للداء الوبيل، وأعضل أنواعه الاستعمار، الذي وجد منهم مطايا دُللاً سماحاً إلى غاياته الخبيثة في الإسلام والمسلمين؛ ولو كان العلماء هم القادة، وكانوا أحياء الضمائر والمشاعر، وكانوا . كما كانوا شداد العزائم والإرادات، لوجد منهم الاستعمار في مشارق الإسلام ومغاريه حصوناً تصدّ، ومعاقل ترد¹.

وهيبة العلماء وتقديرهم من قبل الناس يكون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقيامهم بالحق والدفاع عنه، ومحاربتهم للبدع والضلالات والعقائد الفاسدة التي التصقت بالإسلام، و(هو ما تقوم به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في دعوتها وعملها الإصلاحيين؛ وإنها لا تفتأ جاهدة في الإصلاح الديني حتى تؤدي أمانة الله منه، وتبلغ الغاية من إقراره في النفوس، وتمكينه في الأفئدة؛ وقد بلغت دعوتها للمقصورات في خدورهن، وللرُحل في قفارهم، وللبداءة في بواديهم، وللحضر في نواديهم، حتى أصبحت آثارها بادية في العقول والأفكار والإرادات وقد رجع للقرآن بعض نفوذه وسلطانه، وحجته وبرهانه، وللسنة النبوية مكانها علماً وعملاً، وللعلماء المصلحين قوتهم في التوجيه، ومكانتهم في التدبير، وقدرتهم على القيادة)².

رابعاً: مجالات النصيحة عند جمعية العلماء:

1 . محاربة البدع ومظاهر الشرك

لقد شنت جمعية العلماء حملة منظمة ومتواصلة على البدع والخرافات والشعوذة والتوسل بالأضرحة، بواسطة الخطب والمحاضرات، ودروس الوعظ

¹ - المرجع نفسه.

² - المرجع نفسه.

والإرشاد في المساجد والأندية، والأماكن العامة والخاصة، حتى في الأسواق، وعبر المقالات في جرائدها الخاصة التي أنشأتها، لكن بالعلم والبرهان، وتوظيفا محكما لنصوص الكتاب والسنة، قال العلامة ابن باديس: (إن الواجب على كل مسلم في كل مكان وزمان أن يعتقد عقداً يتشرب به قلبه، وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبي عليه أعماله، أن دين الله تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان، إنما هو في القرآن والسنة الصحيحة وعمل السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأن كل ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول - قولاً كان أو عملاً أو عقداً أو احتمالا - فإنه باطل من أصله، مردود على صاحبه، كائناً من كان، في كل زمان أو مكان)¹؛ وقال الشيخ الإبراهيمي: (الدعوة إلى الله وظيفة أهل الحق من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهي أثنى ميراث ورثوه عنه، وهي أدق ميزان يوزن به هؤلاء الورثة ليتبين الأصيل من الدخيل، فإذا قصر أهل الحق في الدعوة إليه، ضاع الدين، وإذا لم يحموا سننه غمرت البدع، وإذا لم يجلو محاسنه علتها الشوائب فغطتها، وإذا لم يتعاهدوا عقائده بالتصحيح داخلها الشك، ثم دخلها الشرك، وإذا لم يصونوا أخلاقهم بالمحافظة والتربية أصابها الوهن والتحلل، وكل ذلك لا يقوم ولا يستقيم إلا بقيام الدعوة واستمرارها واستقامتها على الطريقة التي كان عليها محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الهداة من العلم والبصيرة في العلم، والبيّنة من العلم والحكمة في الدعوة، والإخلاص في العمل، وتحكيم القرآن في ذلك كله)²، وقال الشيخ العربي التبسي: (وهذه الطائفة التي تعد

¹ - من رسالة سؤال عن سوء مقال ردا عن أحدهم لما جاوز أدبه مع النبي صلى الله عليه وسلم. آثار الإمام ابن باديس، ج:3، ص:222.

² - الآثار، ج:4، ص:408.

نفسها سعيدة بالنسبة إلى السلف وأرجوا أن تكون ممن عناهم حديث مسلم (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة¹) الحديث. فقد وُفقوا لتقليد السلف في إنكار الزيادة في الدين، وإنكار ما أحدثه المحدثون وما اخترعه المبطلون ، ويرون أنه لا أسوة إلا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو من أمرنا بالإتساء به، فلما شاركوا السلف وتابعوهم في هذه المزية الإسلامية نسبوا أنفسهم إليهم، ولم يدع أحد منهم أنه يدانيهم فيما خصهم الله به من الهداية التي لا مطمع فيها لسواهم)، وقال أيضا: (أما السلفيون الذين نجاهم الله مما كدتم لهم فهم قوم ما أتوا بجديد، وأحدثوا تحريفا، ولا زعموا لأنفسهم شيئا مما زعمه شيخكم، وإنما هم قوم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر في حدود الكتاب والسنة، ونقمتم منهم إلا أن آمنوا بالله وكفروا بكم)².

ومن البدع ومظاهر الشرك التي حاربتها الجمعية الذبح والنذر لغير الله تعالى³،

¹ - أخرجه الإمام مسلم عن جابر في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد، رقم: 225، ونصه : عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: (سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم تعال صل لنا فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله هذه الأمة).

² - المقالات، ج: 1، ص: 109 و 115.

³ - يقول الشيخ ابن باديس: (من أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالبين رضاها ومعونتها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تتحرها عندها إرضاء لها وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضرر). الآثار، ج: 2، ص: 96. ويقول أيضا: (كانت عبادة الأوثان في الجاهلية بالخضوع والتذلل لها ورجاء النفع وخوف الضرر منها، فينذرون لها النذور وينحرون لها النحائر ويلطخونها بالدماء ويتمسحون بها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة لها أشجار ولها أحجار تسميها

والاستعانة بغير الله¹، وبناء المساجد على القبور²، والغلو في الصالحين³، وتقديس شيوخ الطرق الصوفية، وإثبات علم الغيب لغير الله، والحلف بغير الله⁴، والسحر.

وقد ألف أحد علماء الجمعية وهو الشيخ مبارك المليكي كتابا نفيسا في محاربة كل أنواع البدع والشرك سماه "رسالة الشرك ومظاهره"⁵ اعتنى فيه ببيان

بأسماء وتذكرها بالتعظيم، وتحرق عندها البخور وتتمسح وتتمرغ عليها مثل فعل الجاهلية أو يزيد). الآثار، ج:2، ص:97.

¹ - يقول الشيخ ابن باديس: (إذا نظرنا في حالة السواد الأعظم منا معشر المسلمين الجزائريين، فإننا نجد هذه الكلمات شائعة بينهم فاشية على ألسنتهم؛ وهي "بربي والشيخ" وهم يعنون أن ما يفعلونه هو بالله ويتصرف الشيخ، "بربي والصالحين" و"بربي والناس الملاح"، "إذا حب ربي والشيخ"، "شوف ربي والشيخ" وهي كلها من كلمات الشرك كما ترى). الآثار، ج:2، ص:113.

² - يقول الشيخ ابن باديس: (هذه هي حالتنا اليوم ... تجد أكثر أو كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصلاح، ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون، فإن قيل: إنما بنيت المساجد على تلك القبور للتبرك بأصحابها لا لعبادتهم، قلنا: إن النهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر، بقطع النظر عن قصد صاحبه، ولو كانت صورة البناء للتبرك غير مرادة بالنهي على العموم، ذلك لأنها وإن لم تؤد إلى عبادة المخلوق في الحال فإنها مظنة أن تؤدي إلى ذلك في المآل وذرائع الفساد تسد لا سيما ذريعة الشرك ودعاء غير الله التي تهدم صروح التوحيد). الآثار، ج:2، ص:151.

³ - يقول ابن باديس: (والسكوت عن هذا أو نحوه أدى بالعامّة إلى الغلو في الأولياء رضي الله عنهم غلوا أنطقهم بألفاظ الشرك). الآثار، ج:5، ص:34 و35.

⁴ - يقول ابن باديس: (ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم وتعظيمهم لها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمون من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون. فهذه الطوائف الكثيرة قد لحقت بالمشركين وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قِبَائِلُ مَنْ أُمِّي بِالْمُشْرِكِينَ" (الترمذي)). الآثار، ج:2، ص:96 و97.

⁵ - وقد أجمع مجلس إدارة جمعية علماء المسلمين الجزائريين على محتوى هذا الكتاب واعتماده في التدريس. وقامت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بطبعه لما رأت فيه من فائدة، ثم قام الشيخ الفاضل أبو عبد الرحمن محمود بتحقيق الكتاب تحقيقا علميا بذل فيه جهدا مشكورا.

حقيقة التَّوْحِيد الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وبيّن الشُّرك الأكبر الذي ينافي أصل التَّوْحِيد، والشُّرك الأصغر المنافي لكمالهِ، وبيّن أيضا الذُّرائع والوسائل المقرّبة إلى الشُّرك أو الموقعة فيه، والبدع القادحة في التَّوْحِيد، والمعاصي المنقصة لثوابه.

2- نشر الأخلاق الفاضلة:

اهتمت الجمعية ببث الفضائل والأخلاق بين الناس واعتبرتها أساس صلاح المجتمع، وتوثيق العلاقات بينهم، لذلك ما فتئ علماء الجمعية في خطبهم ومقالاتهم ودروسهم يدعون الناس إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة، لأنها لا تنفك عن تعاليم الإسلام، وهي من أهم ما يثمره التزام المسلم بالعبادات، فالقانون الأساسي للجمعية ينص: (على أنها تهذيبية إرشادية وأنها تحارب الآفات الاجتماعية وكل ما يحرمه صريح الشرع)¹، يقول الإبراهيمي: (وأما اللازم الثاني . أي للدين . وهو الأخلاق فنحن أحوج ما نكون إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه المبادئ العاملة على هدم الأخلاق الخيرية، وكثرت فيه الأذواق المتطرفة التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة. وإذا كان عقلاء الأمم التي أرقى منا بكثير تشكو فساد الأخلاق في أممها فمن نحن وأين نكون؟ فالواجب على اجتماعنا الذي ننشد تكوينه أن يبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا، ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية، لأن لنا أساسا نبني عليه ولا يعسر إحيائه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة، والتي نجد معظمها في القرآن في أوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من التراث. فإذا تمكنا بالتدريج من قمع هذه الجرائم

¹ - آثار الإمام ابن باديس، ج:6، ص:218.

الأخلاقية التي أفسدت مجتمعنا وتكوين أفق أخلاقي صالح نكون قد جنينا من اجتماعنا شيئا هو ثمرة الثمرات وفائدة الفوائد¹.

وقد اتخذت الجمعية من التعليم طريقا لترسيخ الأخلاق، وجعلت التربية لازمة للتعليم، بل سابقة عن التعليم، فلا معنى لعلم لا تتبعه الأخلاق، وإذا كان العلم ينصرف إلى الرؤوس فإن التربية تنصرف إلى النفوس²، واعتبرت المعلمين مربين، باعتبار أن أولى الناس بحمل الناس على الأخلاق هم المعلمون الذين يزاجون بين التربية والتعليم؛ فالتربية وحمل النفس على الأخلاق طريق التزكية وبناء الإنسان، والجمعية في ذلك تتأسى بالمنهج النبوي في تربية أصحابه وتركيتهم وإصلاح نفوسهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم حيث كان يفرغ النفوس من الشرور والخصال الدنيئة ويملؤها بالخير والصفات الحميدة. وهو ما بينه القرآن الكريم واعتبر أن التزكية . بعد بيان عقيدة التوحيد . من أهم وظائف الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)³.

لقد علمت الجمعية أن انتشار الفساد وانحلال الأخلاق عائق خطير أمام التغيير والإصلاح، فعملت على إحياء الأخلاق الإسلامية من أجل إصلاح أحوال المسلمين، سالكة في ذلك منهج التخلية ثم التحلية، الذي عبّر عنه بعض الصحابة: (كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُفرغنا ثم يملأنا). فرجوع المسلمين إلى الأخلاق الإسلامية هو الذي يحيي الأمة، ويزكي نفوس أفرادها،

¹ - آثار الإمام الإبراهيمي، ج:1، ص:52.

² - أطلقت الجمعية على المدرسة التي أسستها في مدينة قسنطينة اسم مدرسة التربية والتعليم

³ - الجمعة:2و3.

ويقوي صلاتهم، ويهذب طبائعهم، فينتصرون على أهوائهم وشهواتهم.
3. الاهتمام بالمرأة وإصلاح شأنها:

كان الجمود واقفا في سبيل المرأة ومانعا من تعليمها، فجاءت جمعية العلماء وأذابت الجمود وكسرت السدود وأخرجت المرأة من سجن الجهل إلى فضاء العلم في إطار التربية الإسلامية والضوابط الشرعية، والجمعية تبني أمرها على حقيقة وهي أن الأمة كالطائرة لا تطير إلا بجناحين، وجناحاها هما الرجل والمرأة، فالأمة التي تخص الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي واقعة لا محالة. ولجمعية العلماء جولات موفقة في هذا الميدان، فالنساء أصبحن يشهدن دروسا خاصة بهن في الوعظ والإرشاد ويفهمن ما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات.

وكان أهالي الجزائر في زمن الاستعمار يمنعون بناتهم من الذهاب إلى المدارس الحكومية، لأن القائمين عليها ليسوا مسلمين. فبقيت المرأة بعيدة عن التعليم إلى أن ظهرت بواد الحركة الإصلاحية، فنأى الشيخ ابن باديس بضرورة تعليم البنات، وتوفير المكان المناسب لهن دون الاختلاط بالذكور، معطيا بذلك روحا جديدا للتعليم في الجزائر لم يكن معهودا فيها من قبل، لاعتقاده رحمه الله أن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسين الرجل والمرأة، مثل الطائر لا يطير إلا بجناحيه، فيقول: (النساء شقائق الرجال في التكليف فمن الواجب تعليمهن وتعلمهن)¹.

والجمعية تعتبر المرأة المسلمة هي عماد الأسرة الصالحة وقوام البيت السعيد، وهي منتجة الرجال ومربية الأجيال، فقد أولت تعليمها اهتماما كبيرا، مدركة الخطر المحدق بالأمة إذا تركت المرأة بغير تعليم، وفي ذلك يقول الشيخ

¹ - الشهاب، ج:2، م:15، صفر 1358هـ / مارس 1939م - آثار الإمام ابن باديس، 2، ص:158.

ابن باديس: (علينا أن نكمل النساء تكميلاً دينياً، يهيئهنّ للنهوض بالقسم الداخلي من الحياة، وإعداد الكاملين ومساعدتهم للنهوض بالقسم الخارجي منها، وبذلك تنتظم الحياة انتظاماً طبيعياً تبلغ به الإنسانية سعادتها وكمالها)¹. وإذا أريد للمرأة المسلمة القيام بوظيفة تربية الأجيال، فلا بد من توافر الشروط التي تؤهلها للقيام بذلك، مثل العلم الشرعي والعمل به، وهو ما يشير إليه ابن باديس بقوله: (علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا، على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة. وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم)².

وكان ابن باديس يعرض لتراجم بعض نساء السلف في دروسه ومقالاته في جرائده ومجلاته حتى يغرس الفضائل والأخلاق وحب التضحية في المرأة الجزائرية التي كان يرى بأن عبء الدعوة والإصلاح ينهض به معا كل من الرجل والمرأة، فعندما تناول في بعض مقالاته قصة استشهاد سمية بنت خياط أول شهيدة في الإسلام وزوجها ياسر، يقول معلقاً: (لا تقوم الحياة إلا على النوعين اللذين يتوقف العمران عليهما، وهما الرجال والنساء... وانظر إلى حظ المرأة السبق إلى تأييد الإسلام بالنفوس والمال، والعطف والحنان، فأول مال وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مال خديجة، وأول عطف لقيه وأول قلب انفتح لسماع كلمة النبوة . كما في حديث بدء الوحي . هو عطف

¹ - الشهاب، ج:6، م:11، غرة جمادى الثانية 1354هـ / سبتمبر 1935م - آثار الإمام ابن باديس، 2، ص:169.

² - الشهاب، ج:3، م:15، ربيع الأول 1358هـ / أبريل 1939م - آثار الإمام ابن باديس، 2، ص:161.

خديجة وقلب خديجة، وأول شهيدة في الإسلام . كما اتفق عليه علماء السيرة . هو سمية. فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلامية إلا إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم، في نطاق عملهن الذي حدده الإسلام وعلى ما فرضه عليهن من صون واحتشام)¹. وفي مدارس جمعية العلماء نحو ثلاثة عشر ألف بنت يشاركن الأولاد في السنوات الثلاث الأولى من المرحلة الابتدائية، ثم ينفردن ببرنامج خاص بهن.

لذا كان تعليم المرأة أمراً حيويًا بالنسبة لمستقبل الأمة، فبصلاحها يصلح البيت ويستقيم أمر المجتمع. ويذهب الشيخ ابن باديس إلى عدم اختلاط البنات بالذكور في التعليم، لأن في ذلك مفسدة لهم، ويميل رحمه الله إلى أن يجعل لتعليم النساء يومًا خاصًا، ويتكرر هذا اليوم بقدر الحاجة، ولما كانت الحاجة دائمة فالיום مثلها. والمرأة تقوم بمهمة عظيمة ومسؤولية كبيرة، فهي صانعة الرجال ومربية الأجيال، لذلك وجب تهيتها، وإعدادها الإعداد اللازم لمثل تلك المهمة.

ومن مبادرات الجمعية لتشجيع المرأة على طلب العلم، وحث الأولياء على تعليم بناتهم إقرار مجانية التعليم للبنات، وفي هذا يقول الشيخ ابن باديس: (فندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب (مكتب جمعية التربية والتعليم بقسنطينة). فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم (الرسوم) إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمن كلهن مجانًا، لتتكون منهن -ياذن الله- المرأة المسلمة المتعلمة)².

4 . تقديم النصيحة للمخالفين لها في المنهج:

¹ - الشهاب، ج:3، م:13، ربيع الأول 1356هـ / ماي 1937م - آثار الإمام ابن باديس، 3، ص:54و55.

² - آثار الإمام ابن باديس، ج:4، ص:54.

أ . موقفها من الطرق الصوفية:

ذكرنا سابقا أنه من عوامل ظهور الجمعية اشتداد تأثير الحركات الصوفية المنحرفة على كثير من الجزائريين، وازدياد نشاطها، وتكاثر طرائقها، فانتشرت في كثير من المدن والقرى والبادي، فأصبحت تصول وتجول، وصار الناس والأتباع منشغلين بسير الشيوخ وكراماتهم، والخوض في أمور الغيب على سبيل اليقين، والتعلق المثير بمشاهد البركة والمناقب والكرامات. أما المريدون فأغرقوا في العبادات والأذكار الموضوعة التي لم يكن عليها السلف. ورغم وقوف الطريقة منذ البداية بقوة ضد تأسيس جمعية العلماء وحاولت بكل ما أوتيت من قوة، إلا أن الأعضاء المؤسسين للجمعية وجهوا الدعوة إلى جميع العلماء والمشايخ، وكان مجلسها الإداري الأول يضم إلى جانب رجال الإصلاح، بعض الطريقين ورجال الدين الرسميين التابعين للسلطة الفرنسية، وهذا محاولة من علماء الجمعية لكسبهم وإرجاعهم عما هم فيه من الانحراف، ومعاملة لهم بالحسنى، لكن نية هؤلاء الطريقين كانت من أجل إفشال مشروع الجمعية ك فكرة وكتنظيم، أو من أجل السيطرة على الجمعية وتسخيرها وفق مصالحهم وأهوائهم، لكنهم أخفقوا في احتوائها، (ولكنهم ما أكملوا السنة الأولى حتى فروا من الجمعية، وناصبوها العدا، واستعانوا عليها بالظلمة، ورموها بالعظائم... ذلك لأنهم وجدوا كثيرا من الآفات الاجتماعية التي تحاربها الجمعية، هم مصدرها، وهي مصدر عيشتهم، ووجدوا قسما منها مما تُغضب محاربتة سادتهم ومواليهم)¹. بل قام رجال الصوفية بدعم من سلطات الاحتلال إلى تأسيس (جمعية علماء السنة) في خريف سنة 1932م، تضم الطريقين ورجال الدين الرسميين إضافة إلى بعض العلماء المأجورين، لمناهضة جمعية العلماء،

¹ - الشهاب، ج:8، م:12، شعبان 1355هـ/نوفمبر 1936م - آثار الإمام ابن باديس، ج:4، ص:198.

ومناصببتها العداء. ودعموا حملتهم بإصدار بعض الصحف، منها (المعيار) و(الرشاد)، وقد انضمت إلى هذه الحملة جريدة النجاح التي كانت في بدايتها إصلاحية. إلا أن التنافس بين أعضائها وغياب الاستعداد والإخلاص الحقيقي لله تعالى ثم للوطن أفشل هذا المشروع في مهده.

لقد أدركت الجمعية بعد التروي والتثبت، ودراسة أحوال الأمة ومنشئ أمراضها، أن هذه الطرق المبتدعة ضالة ومضلة، وهي سبب تفرق المسلمين، بل السبب الأكبر في تضليل الناس وتخديرهم. فاتبعت منهج الحكمة والبرهان العلمي في نصحتهم وتنبيههم إلى انحرافاتهم، وتحذير الناس منهم، يقول الشيخ الإبراهيمي: (أنها على العلل في الإفساد ومنبع الشرور... ونعلم أننا حين نقاومها، نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها -إن شاء الله- نقضي على كل باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرق المشنومة)¹.

فخطر الطريقة كان عظيما، لأنها ألغوبة في يد الاستعمار، يسخرها لتنفيذ مخططاته، وثني الجزائريين الساذجين عن مقاومة المستعمر، حيث كانت تثب أفكارها ومعتقداتها المسمومة، كالتواكل، والانشغال بالأوراد الموضوعية، واعتبار الاستعمار قضاء وقدر ينبغي التسليم به والصبر عليه.

فكانت الطريقة أحد أهم العوائق والعقبات التي واجهت عمل الجمعية مما جعل هذه الأخيرة لا تكتفي بتوجيه نظرها واهتمامها نحو الاستعمار الفرنسي وإنما نحو هذا العائق الداخلي الذي تحول إلى أداة طيعة بيد المستعمر البغيض، فجعلت الجمعية ضمن أولويات عملها تخليص الناس من شرورهم

¹ - من موضع طويل بعنوان: "فلسفة جمعية العلماء"، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الإسلامية، قسنطينة، ص: 5 إلى 72 - "آثار الإمام الإبراهيمي، ج: 1، ص: 190.

وخاضت مع هؤلاء المنحرفين في العقيدة والعبادة أنصار الاستعمار حرباً صعبة فقاومت بدعهم وضلالاتهم، وتمكنت تمكنت من تطهير الدين من الخرافات والبدع ومظاهر الشرك المختلفة.

وقد أتت نصيحة الجمعية ثمارها وأكلها حيث تمكنت من تغيير نظرة الكثيرين فابتعدوا عن الطرقية، وأصبح هم الشعب يكمن في العمل على إخراج الفرنسيين من البلاد بدلاً من الخضوع والمطالبة بالمساواة أو الإدماج.

إن الجمعية صحّحت عقائد الناس وحاربت الطرقية التي نشرت الشرك وعبدت الناس للمشايخ وفرنسا، وحاربت العقائد الفاسدة التي كانت تبثها بين الناس كعقيدة الإرجاء والتواكل والجبر وعدم الأخذ بالأسباب. وهذا إدراكاً من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنّ سبيل الخلاص من الاستعمار هو تخليص الشعب أولاً من أمراضه الذاتية، وبعدها يتخلّص هو بنفسه من المستعمر، فنجحت إلى حدّ بعيد في معالجة الأمراض الداخلية ومقاومة التغريب والفرنسة، ومجهودها كان مقدّمة للعمل الثوري المسلّح¹، يقول العلامة البشير الإبراهيمي: (إن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين، آت من جهتين متعاونتين عليه، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين، يمتصّان دمه ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي. واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، والمتجرون باسم الدين، والمتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطوعية. وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب، حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى، خوفاً من الله بزعمه. والاستعماران متعاضان، يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، وغرضهما معاً تجهيل

¹ - كانت الجمعية تؤمن بالعمل المسلح ضد المستعمر الكافر، لكن لم تكن ترى أنّ أوانه قد حان، وإنما كانت تعمل على الإعداد الروحي والنفسي أولاً.

الأمة، لنلا تفيق بالعلم. وتفقيرها، لنلا تستعين بالمال على الثورة. وإذن فلقد كان من سداد الرأي أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون وهكذا فعلت¹.

ب. موقفها من الأحزاب السياسية الجزائرية:

كان منهج الجمعية في العمل هو تجنب جمعيتهم الصراعات السياسية والحزبية مع بقية التنظيمات والأحزاب الجزائرية الأخرى، وحرصت على حسن التعاون معها خدمة للوطن وتخليصه من الاستعمار، ورغم محاولات الاستفزاز التي شنتها بعض التنظيمات الحزبية الوطنية تجاه الجمعية ورئيسها إلا أن الجمعية التزمت الحكمة في التعامل، والرد بالحسنى، حتى لا تشغل بالصراعات الهامشية عن القضايا الجوهرية لنلا تستغل من قبل الاستعمار المتربص، يقول ابن باديس: (أما موقف الجمعية مع خصومها، فإنها تعلم أن الأمة اليوم تجتاز طورا من أشق أطوارها وأخطرها، فهي تتناسى كل خصومة، وتعمل لجمع الكلمة، وتحيد الوجهة، ولا تنبذ إلا أولئك الرؤوس: رؤوس الباطل والضلال الذين لا تجدهم الأمة في أيام محنتها إلا بلاء عليها، ولا يتحركون إلا إذا حركوا لغايات عكس غاياتها)².

ومما يدل على حسن نية الجمعية هو حضورها بقوة في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م التي كانت من بين الداعين إليه من أجل إنشاء إطار يجمع بين العناصر الفاعلة في الساحة الجزائرية، والذي ضم هيئات وحركات وأحزاب، والذي قال فيه ابن باديس: (لا أعرف من معنى المؤتمر الإسلامي الجزائري،

¹ - د. محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس (الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية)، دار المعارف بمصر، 1968م، ص: 25

² - الشهاب، ج: 8، م: 13، شعبان 1356هـ/أكتوبر 1937م - آثار الإمام ابن باديس، ج: 4، ص: 207.

إلا أنه اتحاد جميع العناصر الجزائرية للمطالبة بالحقوق الواجبة لها على فرنسا كأمة مرتبطة بها، والمحافظة على المقومات اللازمة لها كأمة عربية مسلمة. وعلى هذه العقيدة دعوت للمؤتمر، وعليها عملت فيه، وعليها سألقي عاملاً¹.

فالجمعية كانت تقدم النصيحة للأحزاب المختلفة إلى ترك أسباب الاختلاف التي تفرقهم وتضعفهم، وإلى ضرورة توحيد الجهود والعمل سوياً وأن يكونوا يداً واحدة من أجل تحرير الوطن من الاستعمار الغاشم، وأن لا ينشغلوا بالصراعات الجانبية، ويغفلوا عن القضايا المصيرية المشتركة التي تهم الوطن الجزائري. كما كانت تدرك خطورة الصراع والنزاع مع بقية التنظيمات الحزبية التي اختارت النضال السياسي، وهي تعلم مدى حرص السلطة الاستعمارية على تأجيج مثل هذه الصراعات، لما فيها من هدم لأسباب الوحدة ومنع التعاون بين تيارات الحركة الوطنية المختلفة فيتنسّى للاستعمار السيطرة أكثر على الشعب الجزائري.

5. تحذير المجتمع من خطر المخططات الاستعمارية:

أ. الزعم بأنه لا وجود للأمة الجزائرية:

قاومت الجمعية المخططات والأفكار الاستعمارية بكل الوسائل الإصلاحية، ومنها أنه لم يعد وجود للأمة الجزائرية ذات الخصوصية الحضارية، والتي تبناها للأسف بعض المثقفين الجزائريين آنذاك.

فعملت بالفكر والعمل والإصلاح على إبطال النظرية الاستعمارية الفرنسية التي أفتعت كثيراً من النخبة الجزائرية بعدم وجود أي أمة جزائرية في التاريخ وارتباط الجزائر عضواً ومصيرياً بمستقبل فرنسا. ورد علماؤها بقوة على هذا

¹ - آثار الإمام ابن باديس، ج:6، ص:186.

الفكر المنحرف الخاطئ الخطير، ومنهم ابن باديس الذي نشر مقالا بعنوان: "كلمة صريحة" يرد فيه على أحد دعاة الإدماج الذي أنكر فيه وجود الأمة الجزائرية في التاريخ¹، وجاء فيه يقول: (ثم إن الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصبح فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وعنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري)².

وكرر فرنسا عنيفا على رجال الإصلاح، فحاربت جمعيتهم ووضعت في طريقها الدعوي كل العقبات. ففي 16 فبراير 1933م نشر والي العاصمة بياناً هاجم فيه جمعية العلماء واتهمها بالعمالة للجامعة الإسلامية. وبعد يومين أصدر قراراً بمنع العلماء من التدريس والإرشاد في المساجد دون رخصة من السلطة الفرنسية. وبلغ الصراع أوجه في عام 1938م، إذ أصدر وزير الداخلية الفرنسي قانون 20 يناير للتضييق على نشاطات الجمعيات والنوادي الثقافية والرياضية التابعة لجمعية العلماء، وبقرار 8 مارس الصادر من الوزير نفسه، أغلقت عدة مدارس حرة، واعتقل كثير من العلماء بذريعة عدم امتلاك الرخصة للقيام بوظيفة التدريس.

ب . إعادة الاعتبار للغة العربية:

¹ - وهو أحد النواب الجزائريين الذي قال سنة 1936م وهو فرحات عباس: (الجزائر هي فرنسا وإنه على الجزائريين أن يعتبروا أنفسهم فرنسيين) وقال: (إنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون كتب التاريخ فلم يجد لها من أثر وفتش في الحالة الحاضرة فلم يعثر لها على خبر) فتصدى له ابن باديس رحمه الله تعالى في كلمة صريحة جريئة جعلت صاحبها يتراجع فيما بعد.

² - آثار عبد الحميد بن باديس، ج:5، ص: 294

لقد انتهج الاستعمار الفرنسي خطة مدروسة للقضاء على كل مقومات الشعب الجزائري، ومحاربه بشدة للدين الإسلامي عن طريق هدم المساجد وتحويل بعضها إلى ثكنات ومرافق عامة، ومحاربة اللغة العربية لغة القرآن الكريم. وأدرك منذ الوهلة الأولى أنه لا سبيل لإبعاد الجزائريين عن دينهم وقرآنهم إلا بانتزاع اللسان العربي أو إضعافه، وإحلاله باللسان الفرنسي، حتى لا يكاد الإنسان الجزائري يمت بصلة إلى قرآنه وسنة نبيه. فضيق الخناق على تدريس اللغة العربية في المساجد، وأنشأ مدارس يشرف عليها تدرس اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، لمسح الشخصية الجزائرية وإنتاج عنصر بشري يكون مواليا لفرنسا، يقول الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي: (لا جرم كانت اللغة هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر، حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء)¹.

فكان تركيز جمعية العلماء المسلمين على اللغة العربية صائبا، وإعطائها الأولوية في التدريس لتفويت الفرصة على المستعمر، فأحييت دراسة متونها كالأجرومية والألفية، وحثّت الطلبة أن لا يتكلموا أو يتخاطبوا أو يتكاتبوا إلا بها، وشجعتهم على الكتابة بها في الجرائد، ونظّمت المسابقات في قرض الشعر والخطابة، وعُرف علماؤها بفصاحة اللسان وبلاغه الخطاب والإبداع في النظم والنثر.

¹ - الرافعي، من وحي القلم، ج:3، ص:29.

ومن المخططات الاستعمارية في محاربته للغة العربية هو محاولته إحلال اللهجة البربرية مكان اللغة العربية خاصة في منطقة القبائل، تفريقا للأمة الجزائرية وسعيا منه لبث النزاع والخلاف والعداوة بين أبناء الوطن الواحد، لذلك ما فتئ علماء الجمعية يدافعون عن عروبة الجزائر ماضيا وحاضرا في كل مناسبة، ويؤكدون على رسوخ اللغة العربية في المجتمع الجزائري¹، فيقول الشيخ الإبراهيمي: (اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حمايتها، وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشددة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام)².

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعتقد كما يعتقد أي مسلم في الأرض أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للإسلام والمسلمين، ولها على الجزائريين حق الحفاظ عليها والاعتزاز بها، لأنها تمثل لغة دينهم، وجزءا من مكونات شخصيتهم، وأساس هويتهم، وعنصر انتمائهم إلى أمتهم، يقول الإبراهيمي: (إن هذه الأمة تعتقد وتموت على اعتقادها أن لغتها جزء من كيانها السياسي والديني وشرط في بقائها، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدين والسياسة، فلم يختلف لهما فيه رأي، ولم يفترق لهما قصد)³.

كما تعتبر الجمعية أن اللغة العربية عاملا جامعاً بين الجزائريين على اختلاف أعراقهم وتنوع لهجاتهم، بها يتفاهمون ويتخاطبون فيما بينهم. وهذه اللغة . إلى جانب الإسلام - هي العامل الذي يجمع ماضي الجزائر بحاضرها

¹ - أنشد ابن باديس قصيدته المشهورة: شعب الجزائري مسلم * وإلى العروبة ينتسب

² - في مقال له بعنوان "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرة"، نشر في جريدة البصائر، العدد: 41، في 28 جوان 1948م - الآثار، ج: 3، ص: 206.

³ - من مقال بعنوان: "اختلاف ذهنين في معنى التعليم العربي"، جريدة البصائر، العدد: 152، 23 أفريل 1951م - الآثار، ج: 3، ص: 284 - عيون البصائر، ص: 313.

ومستقبلها، يقول ابن باديس في هذا الصدد: (لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة.. إنها وحدها الرابطة بيننا، وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعز به، وهي الترجمان عما في النفس من آلام وآمال).

ويشيد الشيخ البشير الإبراهيمي بفضل اللغة العربية ومكانتها وخصائصها فيقول رحمه الله: (وقد كانت هذه اللغة ترجمانا صادقا لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم، وفي أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات، وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها)¹، إلى أن يقول: (أيها الإخوان: لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته... لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون)².

¹ - من مقال له بعنوان: "العربية فضلها على العلم والمدنية وأثرها في الأمم غير العربية"، الشهاب، ج:1، المجلد الخامس عشر، فيفري 1939، ص:11 - الآثار، ج:1، ص:374.

² - من مقال له بعنوان: "العربية فضلها على العلم والمدنية وأثرها في الأمم غير العربية"، الشهاب، ج:1، المجلد الخامس عشر، فيفري 1939، ص:11 - الآثار، ج:1، ص:376.

ج . التصدي للفرقة بين الجزائريين:

لقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يزرع بذور الخلاف والشقاق بين الشعب الجزائري، فقسم الشعب إلى عرب وبربر، وفصل مناطق سكان البربر عن المناطق الجزائرية الأخرى، بسلسلة من الأنظمة والقوانين، وكثف من نشاط تنصيرهم وتجنيسهم، وقد تصدى ابن باديس وغيره من العلماء لهذه المحاولات، وأكد على ضرورة تمسك الشعب بعروبتهم وإسلاميتهم، فكتب ابن باديس يوما مدافعا عن وحدة الشعب الجزائري قائلا: (إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابريهم في مجالس الدرس لخدمة العلم.. فأى قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب، والأمانى الخوادم، ياعجبا لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي، كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم)¹.

اتبعت الجمعية خطة عملية في تحقيق الوحدة بين الجزائريين وتقويت الفرصة على المستعمر الظالم من خلال توحيد الشعائر الدينية، وبخاصة فريضة الصيام، حيث كان يظهر الخلاف مع إقبال شهر رمضان من كل عام في شأن رؤية الهلال بين صائم ومفطر، فيجد أبواب الاستعمار منفذا لتأجيج الصراع بينهم، فتقدم ابن باديس بنصيحة للشعب جاء فيها: (إن الخلاف كله

¹ - في مقال له بعنوان: "ما جمعه يد الله لا تفرقه يد الشيطان"، الشهاب، ج:11، فيفري 1936م- آثار الإمام ابن باديس، ج:5، ص:460.

شر، وشره ما كان في الدين، وأشنع أنواعه وآلمها لكل ذي غيرة على دينه ما يقع كل عام بهذه الديار من اختلافكم في الصوم والإفطار ... إن مسألة الصوم والإفطار خرجت عندنا من باب الاعتبار الديني إلى باب التعصب الشخصي أو الحزبي، ومن آيات ذلك أن أصبحنا نرى في هذه الأمة من يصوم لأن فلانا مفطر، ومن يفطر لأن فلانا صائم. ومن القبيح الشنيع أن نجعل الدين . الذي هو مناط وحدتنا ومعقد ارتباطنا . موضوع اختلافنا ودائرة تفرقنا وسبب تفكك رابطتنا ...أحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن يكون في القبيلة الواحدة مفطر وصائم، ثم لا يكفي ذلك حتى يكون في البيت الواحد مفطر وصائم. أحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن تكون في البلدة الواحدة أسرة مبهجة بالعيد، بطالعه السعيد، كبارها يتقبلون التهاني والتبريكات، وصغارها يتقبلون في صنوف الأفراح والمسرات، بينما جار الجنب صائم ممسك وأولاده يتحرقون حسرة ويتميزون غيظا وإن كانوا لا يدرون على من؟ ولو كان الفرق يوما واحدا لهان الأمر، ولكنه اليومان والثلاثة. فلا عجب إذا كان هذا الحال من أسباب الضغائن والحقود تحملها القبيلة للقبيلة والأسرة للأسرة ثم يحملها الأولاد للأولاد¹.

كما عملت على توحيد الشعائر الدينية المختلف فيها بين أتباع المذاهب الفقهية المختلفة، ودعت المسلمين إلى أن يحترم بعضهم بعضا في هذه الفروع الفقهية التي دلت عليها الأدلة الظنية، من ذلك ما قامت به من جهد لحسم الصراع الذي قام بين الإباضية والمالكية في شأن الأذان بمسجدي غرداية،

¹ - مقال بعنوان: "من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى عموم المسلمين الجزائريين"، النجاح، العدد 1258 07 رمضان 1350هـ / 16 جانفي 1932م. وانظر آثار عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر، ط1، سنة 1415هـ/1994م، ج:6، ص: 68 و69.

حيث قام الإباضية بمنع المالكية من إقامة الأذان للصلاة في هذين المسجدين. وقد حاول رئيس الجمعية الإمام ابن باديس أن يجد طريقا ينصح فيه الفريقين ويجمع بينهما ويجعل كلا منهما يتنازل للآخر عن بعض ما يراه حقا له، ويصلح بينهما، وقد كتب في ذلك فقال: (... فنحن بهذا برأنا الإباضية من تعصبهم على المالكية لأنهم مالكية، ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه حق عليهم أن يرجعوا في هذه المسألة عن رأيهم، ويسمحوا لإخوانهم المالكية بالأذان: أولا: إصلاحا لذات البين بين المسلمين، وهي في الإسلام من أول ما تجب وتتأكد المحافظة عليه والقيام به. ثانيا: حفظا للوحدة الإسلامية بحفظ القلوب غير متصدعة بداء الفرقة القتال المحدود في الإسلام من أكبر المحرمات المهلكات. ثالثا: مجاملة لبقية إخوانهم المالكية بالقطر، الذين تربطهم بهم رابطة الدين والوطن والمصلحة. هذه كلمتنا نقولها بعهد الله، لا نقصد بها إلا القيام بواجب الصدع بالحق والدعوة إليه والإصلاح بين المسلمين)¹.

فالجمعية كانت جامعة لكل الجزائريين على اختلاف مذاهبهم وقناعاتهم حتى قال ابن باديس: (وحيث تنضوي كل المذاهب والفرق فيقل الخلاف أو يخف أو ينعدم. فلو كان في الجزائر جميع مذاهب الإسلام لوسعتهم هذه الجمعية بعلاجها الناجع النافع بإذن الله للجميع)².

وقد طبقت ذلك الجمعية واقعيًا، فكلما وقع الشقاق إلا وسارعت الجمعية عبر علمائها بالإصلاح وتهذئة الوضع وتقديم النصيحة حفاظًا على الوحدة

¹ -الشهاب، ج:12، م:6، غرة شعبان 1349هـ/جانفي 1931م - آثار الإمام ابن باديس، ج:5، ص:453.

² -الشهاب، ج:8، م:12، شعبان 1355هـ/نوفمبر 1936م - آثار الإمام ابن باديس، ج:4، ص:198.

الوطنية، من ذلك الفتنة التي وقعت بين اليهود والمسلمين، حيث شهدت مدينة قسنطينة في 3 و4 أوت 1934م، حوادث دامية بين اليهود والمسلمين، بسبب انتهاك أحد اليهود¹ حرمة المسجد واعتدائه على المصلين بالسب والشتيم، وتوجيه الكلام البذيء إليهم وإلى نبيهم صلى الله عليه وسلم ودينهم، فتحكم المسلمون في أعصابهم في البداية ولم يجاروه، ولكنه تمالى في غيه، واستمر يسب ويشتم ويفحش في القول، عند ذلك لجأ المسلمون إلى الشرطة وطالبوها بمعاقبته وتقديمه للمحاكمة، ولم تقم السلطة الفرنسية بواجبها في حماية المسلمين الجزائريين، وتضامن بقية اليهود مع المعتدي، وامتنعوا عن تسليمه للشرطة، وهاجموا المسلمين وأطلقوا الرصاص عليهم، وقام المسلمون بواجب الدفاع عن النفس وحرمة المسجد، وكادت الفتنة تعم المدينة كلها لولا تدخل رئيس الجمعية ابن باديس وبعض الأعيان الذين حرصوا على تهدئة الوضع. وكان لابن باديس دور كبير في تهدئة الجموع الهائجة وإخماد نار الفتنة، وسجل في ذلك مواقف إنسانية شجاعة، إذ استطاع أن يجمع المسلمين ويقنعهم بتحكيم العقل، وعدم مسايرة الاستفزازات اليهودية حقنا للدماء ومنعا للفتنة².

د . النهي عن التجنيس وبيان خطره:

كانت خطة فرنسا منذ وطئت جيوشها أرض الجزائر بالقضاء على كل مقوم للشخصية الجزائرية، والإدماج السياسي الكامل لهذا الوطن، وتذويب شعبه في ثقافتها الغربية بفرنسته وتنصيره. ومع مرور الزمن ظهرت بين الجزائريين فئة منهم تربت في مدارس الاستعمار، وتشبعت بالثقافة الغربية تدعو إلى التجنس بالجنسية الفرنسية، والتخلي عن أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأحوال الشخصية، والتحاكم إلى القانون الفرنسي المسيحي بغية الحصول

¹ - واسمه "الياهو خليف". آثار الإمام ابن باديس، ج:5، ص:482.

² - آثار الإمام ابن باديس، ج:5، ص:482 وما بعدها.

على بعض الحقوق السياسية. فتصدت جمعية العلماء لهذه القضية، وعارضت بشدة سياسة الاندماج التي تتنكر للشخصية الإسلامية، ونبهوا إلى خطر التجنيس الذي يتعارض في نظرهم مع الإسلام حيث يصبح المواطن خاضعا للقانون المدني الفرنسي لا للشريعة الإسلامية، ولهذا اعتبروا بأن التجنس بجنسية غير إسلامية يعد كفرا لأنه يتحاكم إلى شريعة غير شريعة الإسلام ونعتوه "بالمرتد". وبينوا حكمه الشرعي ومخاطره عن طريق الخطب العامة، والمحاضرات والمقالات في الصحف. ومع إصرار دعاة التجنس، ومطالبتهم الحكومة الفرنسية بتسهيل التجنس عن طريق اجتماع عام عقده في ربيع سنة 1934م، أصدرت جمعية العلماء على لسان رئيسها، الفتوى الشهيرة بتكفير من يتجنس بالجنسية الفرنسية، ويتخلى عن أحكام الشريعة الإسلامية، جاء فيها: (التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكما واحداً من أحكام الإسلام، عُدَّ مرتداً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع)¹.

بل هذه الفتوى لاقت قبولا خارج القطر الجزائري وبخاصة بعض البلدان الواقعة تحت الاستعمار الفرنسي، كتونس مثلاً، حيث كانت بعض الأسئلة ترد من بعض التونسيين إلى الشيخ ابن باديس رئيس الجمعية تستفسر عن حكم التجنس بالجنسية الفرنسية. فأحد المتجنسين التونسيين وهو عضو في جمعية المسلمين التونسيين المتجنسين بالجنسية الفرنسية الراغبين في الرجوع للجنسية التونسية يرسل رسالة إلى الشيخ ابن باديس يشكره فيها على فتواه الجريئة في تحريم التجنس، وقد قامت الجمعية بنشر نص الرسالة في جريدة البصائر في سنة 1938م، وهذا نصها: (سيدي الجهبذ التحرير العالم العامل

¹ - أصدر الشيخ ابن باديس فتوى مفصلة حول التجنس والتوبة منه، ونشرت كاملة في البصائر، العدد: 95، السنة: 3، جانفي 1938م - آثار الإمام ابن باديس، ج: 3، ص: 308.

الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقسنطينة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فلقد قرأت بجريدة "البصائر" الغراء فتواكم الممتعة في مسألة التجنيس وغيرها، ولقد سرني كثيرا صراحتكم المعهودة وإبداؤكم حكم الله فيما وقع استفتاءكم فيه، وذلك شأن العالم العامل بعلمه والذي لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يكتم ما علمه الله من كل سائل يريد حكم الله في سؤاله خلافا لبعض علمائنا بتونس¹ الذين آثروا الخنوع للسلطة المحلية وحب الدنيا ورضوا بأن يلجموا بلجام من النار خيرا من أن يغضبوا سيدهم ظنا منهم أن حياتهم ورزقهم متوقفان على (رضاه)².

هـ . التصدي للتبشير:

رافق التبشير الاستعمار الفرنسي منذ دخوله الجزائر، وقد سحب الجيش الفرنسي في احتلاله للجزائر رجال الدين المسيحي، فالوثيقة الممضاة من قبل القائد الفرنسي دبور مون مع الداوي حسين وثيقة استسلام الجزائر في الرابع من شهر جويلية عام 1830م تنص على المحافظة على الدين الإسلامي وأوقافه واحترامه، وهو ما جاء في المادة الخامسة من هذه الوثيقة: "تكون إقامة الشعائر المحمدية الدينية حرة، ولا يقع المساس بها أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات. ولا بدينهم ؛ ولا بأملأهم ؛ ولا بتجارتهم وصناعاتهم، وتحترم نساؤهم ويتعهد القائد العام بذلك بشرف".

¹ - لقد عُرف الكثير من علماء تونس بمواقفهم الشجاعة، وبمقاومتهم للظلم والانحراف، وبجرأتهم على قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم الإمام العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله.

² - البصائر، العدد: 101، 5 ذو الحجة 1356 هـ الموافق ليوم 7 جانفي 1938م.

لكن الذي حدث مخالف لذلك كله، فقد استولى الاحتلال الفرنسي على الأوقاف والمساجد وحولتها إلى كنائس ومدارس منذ البداية، وهدمت بعضها، يقول الإبراهيمي: (وضع أساس التبشير في الجزائر الكاردينال لا فيجري وأسس مراكزه المهمة، ثم أتمت الجمعيات التبشيرية ما بدأ به، وهي جمعيات قوية يمدّها الأغنياء من المسيحيين المتسامحين بالملايين من المال، ويمدّها رجال الكهنوت ونسأؤه بالأعمال، وتمدّها الحكومات (اللاينية) بالمعرفة والتأييد)¹.

ورغم المجهودات الضخمة من قبل رجال الدين المسيحي الفرنسيين، واستغلال فقر الجزائريين وجهله لتنصيرهم، ورغم طول مدة ممارسة التنصير على الجزائريين إلا أن النتائج لم تكن في مستوى طموحات المستعمر، فالواقع أن التبشير لم يلق النجاح الذي يتناسب مع الجهود المبذولة فيه، والسبب الأكبر في ذلك يرجع إلى شيء واحد وهو شدة تمسك الشعب الجزائري بدينه رغم بؤسه وفقره².

لكن خطر التنصير لم يكن هينا، ما جعل الجمعية تتصدى له بالتخطيط والتنظيم والعمل، خاصة في منطقة القبائل حيث كثفت من نشاطها وعملها الدعوي والإصلاحي في القرى والأرياف، فلم يقتصر دورها على تعليم الناس دينهم والمحافظة على لغتهم فحسب وإنما التصدي لظاهرة التنصير الذي تمارسه السلطات الفرنسية منذ بداية احتلالها للجزائر، وكان لجهدّها ثمار طيبة في الحفاظ على الدين الإسلامي ولغة القرآن الكريم.

¹ - من موضع طويل بعنوان: "فلسفة جمعية العلماء"، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الإسلامية، قسنطينة، ص: 5 إلى 72 - "آثار الإمام الإبراهيمي، ج: 1، ص: 196.

² - آثار الإمام الإبراهيمي، ج: 1، ص: 197.

6. تقديم الجمعية النصائح للعلماء خارج القطر الجزائري¹:

1. تقديم النصيحة للمجلة الزيتونية²:

لقد فرح علماء الجمعية فرحا شديدا بصدور المجلة الزيتونية، ويحق لهم أن يفرحوا، والكثير منهم من خريجي جامع الزيتونة، وبخاصة الشيخ ابن باديس الذي نفسه معنيا هذا المولود الجديد وهو أحد أبناء جامع الزيتونة، واعتبر هذا المولود معززا لحركة الإصلاح في المغرب العربي عموما وفي تونس خصوصا، فيقول رحمه الله: (يحق لي وأنا تلميذ من تلامذة الزيتونة أن اغتبط بالمجلة الزيتونية غبطة خاصة. ويحق لي وأنا جندي من جنود الإصلاح الإسلامي العام أن أسر سرورا خاصا بتعزز معاقل الإصلاح بها. ما كنت لأنسى أربع سنوات قضيتها بالزيتونة، شطرها متعلما وشطرها متعلما ومعلما، فكان لي منها آباء وإخوة وأبناء، فأكرم بهم من آباء وأكرم بهم من إخوة وأكرم بهم من أبناء)³. ثم بعد ذلك يقدم الشيخ ابن باديس النصيحة للقائمين على المجلة التونسية، حيث يقول: (وبعد فإن اسم الزيتونة اسم إسلامي علمي تاريخي عظيم فيجب أن تكون (المجلة الزيتونية) ممثلة له مجددة لعهد؛ وإن في تعاون أساتذة الجامع: شبابهم وشيوخهم على النهوض بها ما يحقق ذلك إن شاء الله. وإنني أقترح على إخواني القائمين بها أن يضموا إلى قلم تحريرها رجالا من الزيتونيين الذين يعرفون بعض اللغات الغربية ولهم خبرة بحركات العصر من وراء البحر، فإن العلوم والآداب والفنون تراث الإنسانية

¹ - آثار عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر، ط 1، سنة 1412هـ/1991م، ج:5، ص: 147 وما بعدها

² - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج:5، ص: 147 وما بعدها - عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج:3، ص:125 وما بعدها.

³ - آثار عبد الحميد بن باديس، ج:5، ص: 147- عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج:3، ص:125.

كلها لا تستقل فيها أمة عن أمة، وأكمل الأمم إزاءها من تحسن كي تحافظ على حسناتها وتستفيد من حسن غيرها)¹.

2 . نصيحة رئيس الجمعية الشيخ ابن باديس لعلماء تونس لإصلاح الأوضاع بها:

في مقال نشره ابن باديس في جريدة البصائر، وفي جريدة الشهاب، إلى علماء جامع الزيتونة يبين فيه مسؤولية العلماء في الاهتمام بقضايا الأمة، وتعليمها، ونصرة الحق، وما يجب أن يبذلونه في سبيل الله. ثم يبين أن نداءات الإصلاح نهضت في كل أرجاء العالم الإسلامي، التي من بينها ارتفاع صوت الأزهر، كما أشاد بموقف علماء طرابلس بليبيا الذين أصدروا فتوى لتحريم الخرافات والبدع التي يمارسها بعض الطرق الصوفية المنحرفة، وقدموا في ذلك مطلباً لحكومة البلاد التي عملت على تنفيذه، ونفس الأمر يشيد بعلماء المغرب الأقصى المدرسين بجامع القرويين الذين رفعوا عريضة إلى السلطان سيدي محمد يشكون مما يقوم به بعض المبتدعة، كطائفة العيسوية وغيرهم. ثم يقول بأن صوت الإصلاح قد ارتفع في كل من مصر وطرابلس والجزائر والمغرب الأقصى، ثم يحث علماء جامع الزيتونة على مقاومة البدع وعدم السكوت عن المنكرات التي تمس بالعقيدة والدين، ومما جاء في ذلك المقال: (لقد ارتفعت الشكوى في الصحف التونسية هذه المدة الأخيرة من بلدان عديدة من القطر التونسي الشقيق بالبدع والمناكر التي يأتيها الطرقيون به، والفضائح التي ارتكبها بعضهم وسيق من أجلها إلى العدلية كما يساق المجرمون، ووجهت سوالات صريحة إلى العلماء في حكم الإسلام في ذلك كله، وعلماء جامع الزيتونة وشيوخ الفتوى فيه وشيخا الإسلام منهم واجمون ساكتون كأن الأمر

¹ - آثار عبد الحميد بن باديس، ج:5، ص: 147 وما بعدها - عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج:3، ص:129.

لا يعينهم، وكأن آيات الله لم تطرق آذانهم، فأين أنتم أيها الشيوخ¹، وأين إيمانكم ؟ لقد سئلتهم عن رفض الشريعة الإسلامية بسبب التجنس ذلك الرفض المخرج عن الإسلام فسكتهم، وقال الناس إنكم خفتهم على مناصبكم، وها أنتم أولاء تسألون اليوم عن البدع والمنكرات الفاشية في المسلمين باسم الدين، تنكر البدع التي أماتت ضمائرهم وخدرت عقولهم، وجمدت أفكارهم وأفسدت أخلاقهم وأضاعت أموالهم، وسلبتهم حقيقة دينهم، وتركتهم بلاء على أنفسهم، وفتنة لغيرهم، فهل أنتم اليوم أيضا ساكتون، وبالتخوف على مناصبكم معتذرون ؟ إننا ندعوكم بكلمة الله إلى الصدع بالحق وإنقاذ المسلمين² (3).

3 . نصائح الشيخين ابن باديس والإبراهيمي إلى علماء تونس لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة⁴:

لقد قام بعض العلماء الزيتونيين بمبادرة إصلاح جامع الزيتونة، وإصلاح التعليم فيه، ومن هؤلاء العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه⁵. وقد أراد

¹ - من مشايخ علماء الزيتونة من كان يصدع بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم، منهم الشيخ العلامة الإمام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى

² - وقد وقع عن هذه الكلمة، عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المتخرج من جامع الزيتونة عمره الله

³ - البصائر، السنة الأولى، العدد1، الجزائر، الجمعة 26 ذو الحجة 1354هـ الموافق لـ: 20 مارس 1936م. ص:1، ع:1 و2 و3 - الشهاب، ج:1، م:12، ص:4-6، بتاريخ غرة محرم 1355هـ - أبريل 1936م. - عمار طالبي، ابن باديس، ج:3، ص:115 وما بعدها.

⁴ - آثار عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر، ط 1، سنة 1406هـ/1985م، ج:4، ص:57 وما بعدها

⁵ - اختير ابن عاشور في لجنة إصلاح التعليم الأولى بالزيتونة في (صفر 1328 هـ = 1910م)، وكذلك في لجنة الإصلاح الثانية (1342 هـ = 1924م)، ثم اختير شيخا لجامع الزيتونة في (1351 هـ = 1932م)، ولكنه لم يلبث أن استقال من المشيخة بعد سنة ونصف بسبب العراقيل التي

الشيخ ابن باديس أن يسهم في هذا المجال باعتباره عايش ظروف جامع الزيتونة، وعاين التعليم فيه، وتلقى العلم فيه، ودرّس فيه. وبما أن ابن باديس خاض تجربة التعليم في الجزائر منذ سنوات العشرينات، واكتسب بذلك تجربة في الميدان، هذه التجربة التي تعززت فيما بعد بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد أراد أن يشارك مع علماء الزيتونة الإصلاحيين في إصلاح التعليم في جامع الزيتونة بتونس، حيث بعث بمقترحاته إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح التي شكلها حاكم تونس سنة (1350 هـ/1931م)، وتضمن اقتراحه خلاصة آرائه في التربية والتعليم، فشمّل المواد التي يجب أن يدرسها الملتحق بالجامع، من اللغة والأدب، والعقيدة، والفقه وأصوله، والتفسير، والحديث، والأخلاق، والتاريخ، والجغرافيا، ومبادئ الطبيعة والفلك، والهندسة، وجعل الدراسة في الزيتونة تتم على مرحلتين: الأولى تسمى قسم المشاركة، وتستغرق الدراسة فيه ثماني سنوات، وقسم التخصص ومدته سنتان، ويضم ثلاثة أفرع: فرع للقضاء والفتوى، وفرع للخطاب والوعظ، وفرع لتخريج الأساتذة. كما تعرض ابن باديس لنقد طرق التدريس التقليدية في جامع الزيتونة التي لا تحقق الغرض من التربية السليمة، وإنما تكون ثقافة لفظية عقيمة طوال فترة الدراسة، حيث يفني الطالب يفني فترة طويلة من عمره في العلوم الآلية دون أن

وضعت أمام خطته لإصلاح الزيتونة، وبسبب اصطدامه ببعض الشيوخ عندما عزم على إصلاح التعليم في الزيتونة. ثم أعيد تعيينه شيخا لجامع الزيتونة سنة (1364 هـ = 1945م)، حيث أدخل إصلاحات كبيرة في نظام التعليم الزيتوني. ومن جملة ما قام به: إصلاح الكتب الدراسية وأساليب التدريس ومعاهد التعليم؛ فاستبدل كثيرا من الكتب القديمة التي كانت تُدرس، واهتم بعلوم الطبيعة والرياضيات، كما راعى في المرحلة التعليمية العالية التبحر في أقسام التخصص، وبدأ التفكير في إدخال الوسائل التعليمية المتنوعة. وحرص على أن يصطبغ التعليم الزيتوني بالصبغة الشرعية والعربية، بتدريس الطلبة الزيتونيين الكتب التي تنمي الملكات العلمية وتمكنهم من الغوص في المعاني؛ لذلك دعا إلى التقليل من الإلقاء والتلقين، وإلى الإكثار من التطبيق؛ لتنمية ملكة الفهم التي يستطيع من خلالها الطالب أن يعتمد على نفسه في تحصيل العلم.

يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير، كتفسير الجلالين مثلا، ويتخرج الطالب دون أن يعرف من حقيقة التفسير شيئا، وذلك بدعوى أنهم يطبقون القواعد على الآيات، كأنما التفسير يدرس من أجل تطبيق القواعد لا من أجل فهم الشرائع والأحكام، وهذا يعتبره ابن باديس هجرا للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم يخدمون القرآن¹. ومن وجوه النقد التي يوجهها إلى طرق التدريس في المغرب الإسلامي، ومنها بجامع الزيتونة الاقتصار على دراسة الفروع الفقهية دون الرجوع إلى الأصول، ودون الاعتماد على الاستدلال والتعليل والقياس، بل إنه يعتبره هذا بعدا عن القرآن وهجرا آخر له²، حيث يقول: (واقصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها)³.

وليس بعيدا على ما اقترحه ابن باديس في إصلاح التعليم في جامع الزيتونة، فإن الشيخ الإبراهيمي يضع جملة من الشروط تكون في نظره كفيلة بإصلاح جامع الزيتونة⁴، فيقول رحمه الله: (إن الإصلاح المرجو لجامع الزيتونة لا يبلغ مداه إلا إذا توفرت فيه ثلاثة شروط: الاستقلال، والمال، والرجال. أما الاستقلال - وهو أهم الشروط- فهو أن تصبح الكلية الزيتونية بمنجاة من تسلط الحكومي كيفما كان لونه، بعيدة عن المؤثرات السياسية والتيارات الحزبية، مثبتة وجودها الذاتي بأنها تؤثر لولا تتأثر؛ فمن حاول إخضاعها لنزعة حكومية، أو جرها لمذهب سياسي، أو توجيهها لوجهة حزبية، فهو مفسد خبيث الدخلة. وأما المال فإن الإصلاحات تتطلب أموالا طائلة، ونفقات

¹ - عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، سنة 1403هـ/1983م، ج:1، ص:108.

² - طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج:1، ص:108.

³ - الشهاب، ج:12، م:10، ص:518-521 - نوفمبر 1934م.

⁴ - آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:551 و552.

سخية، ومهما تبذل الحكومة من الخزينة العامة فإن ذلك لا يكفي ولا يغني، على ما فيه من آفات، فإن الحكومات لا تعطي بدون أخذ، وبدون أن تتخذ من العطاء وليجة للتدخل ومقادة للمسيرين، ودرر الأوقاف الإسلامية لو لم يفسدها سوء الإدارة وتسلط الاستعمار؛ إن الكليات حتى في أغنى أمم العالم لا تقوم على مال الحكومة المحدود وحده، وإنما تقوم على عطاء الكرماء وبذل المحسنين، فهل آن لأمتنا أن تعلم هذا فتعمل به ؟ وأما الرجال فإن في الزيتونة رجالا لو تعاونوا وسلموا من داء المنافسة على الرياسة لحققوا الآمال في الإصلاح، ولعجلوا به؛ وقد كانوا ينتظرون القائد الحازم فقد وجدوه. إن الإصلاح المنشود للزيتونة لا يتم إلا في جو بعيد عن القصر ووساوسه، وعن الهيكل الوزاري ودسائسه، وعن الاستعمار ومكائده ومصائده)¹.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:551.

الخاتمة:

هذه بعض جوانب النصيحة التي مارستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ممارسة عملية في واقع المجتمع الجزائري بمفهومها الشرعي الواسع، والتي شملت عدة مجالات إصلاحية، بل تعدت رقعة القطر الجزائري. ولم يكن من السهل بذل النصيحة في تلك الظروف التي كانت قائمة آنذاك، من شراسة المستعمر البغيض، إلى نفوذ رجال الطرق الصوفية المنحرفة، إلى الأحزاب والحركات السياسية، إلى الواقع المنحرف الذي تراكمت عليه أحقاب التخلف والانحطاط وتحكم العادات الفاسدة فيه، إلى قلة الإمكانيات والوسائل.

ورغم ذلك فقد بذلت الجمعية النصيحة متقيدة في ذلك بالضوابط الشرعية، ونصوص الكتاب والسنة، وإلى الحكمة في التعامل، مراعية مراتب المصالح المختلفة، والتدرج في الخطاب، تُشدّد في مواطن الشدة، وتلين في مواطن اللين. وكان لمنهجها في النصح والإرشاد أثر طيب في إصلاح المجتمع الجزائري، وتخليصه من البدع والخرافات ومظاهر الشرك، وإحياء تمسكه بدينه ولغته، وإعادة الاعتبار لذاته وشخصيته، فكان من ثمار ذلك النصح المخلص الصادق المتواصل الثورة الكبرى التي انطلقت بكلمة الله أكبر وانتصر الشعب الجزائري المسلم بإذن الله تعالى انتصارا عظيما.